كراسة خضراء ورسائل

كراسة خضراء ورسائل

حنان كمال

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٥٤٦ /٢٠١٩
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 557 – 5

كراسة خضراء ورسائل

حنـان كمـال

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كمال، حنان

كراسة خضراء ورسائل/ حنان كمال.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٥ ٥٥٧ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١– القصص العربية

أ– العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٤٥٤٦ / ٢٠١٩

كل هذا صار تاريخًا، لم أعد أنا التي مررت بالتجربـة، ولم أعـد أنا التــي كنتها قـبل التجربة، أقف الآن على شاطئ بعيد وألوح لحــالي. النصوص التي يضمها هذا الكتاب هي ابنة التجربــة والألم والوجع والفراق، كل هــذا كان طريقًا لحيث أقف أنا الآن، أو ربمــا لما هو أبعد، لكن الخلاصة هي «أنني بخير»، اطمئنوا.

المحتويات

مفتتح: مناجاة 9

الفصل الأول

نصرو المحبة منه وإليه 11

نصرو: المحبة تليق به 13
ليلة 25 مـارس 18
الـمَطْهَـر 21
الـحــزن 25
التـأهيـل 28
الـزمـن الذي ولـى 31
الثقـب الأسـود 33
رسالة لأحمد نصر في عيده الأربعين 36

الفصل الثاني

مقابلة خاصة مع الموت 41

مـا صنعـه الـحزن 43
أوان الكيـمـاوي 46

شعري القصير جدًا 51
نـوبـة ألـم 54
حضن سـارة 58
الأبطال الثلاثة: حمزة ونـور وسـارة 62
كوابيس الحركة والسكون 66
عصفـور 69
عن شـكة الإبرة التي تخيفني أكثر من المـوت 72
الـفـرح 75
في طريـق المعجـزة 78

الفصل الثالث

في مديح التجربة 81

عن منح التجربة أحدثكم 83
الملائكة 87
في حياتي القادمة 91
نعمة المعرفة 95
خبز ورضا 98
مـا منحه اللـه لـي 101
وصفتي السحرية 104
السيناريو المعاكس 106
ليتني كنت درويشة حقًا 108

مفتتح:

مناجاة

عزيزي اللـه:

يقولون أنك تحبني كثيرًا لذلك أثقلت عليَّ بالإبتلاءات، وأنا لم أعترض يومًا، فإذا كانت الإبتلاءات هي قدري، فمحبتك هي عطر روحي ونورك هو سندي وملجأي. في الأيام الأولى بعد وقوع الحادث، كنت أشعر كأن شيئًا ما يسحق عظام روحي، يبدد إعجابها بذاتها، أنت تعلم أنني كنت أحب نفسي وقتها ومازلت، تلك المرأة المشاكسة قليلًا الباسمة كثيرًا والتي لم تؤذ أحدًا طوال حياتها. في الأيام التالية فهمت حكمة ذلك الترقيق الذي فعلته لروحي، ضغطت عليَّ حتى الألم ثم تركت روحي رقيقة شفافة. كانت جميلة حقًا وكان جميل أن أعرف أنك معي حتى وإن كانت دلالات صحبتك تأتي مع الألم. كان يوم حار من بدايات إبريل حينما مات محمد. محمد طفل من أطفال الشوارع كان يعيش بجوار مسجد الحُصري ضمن مجموعة من الأطفال تعيش على التسول حتى صدمته سيارة. رأيته في

غيبوته في العناية المركزة، حتى فارق الحياة بعد أيام. وفي ذلك اليوم كنت جالسة بجوار أمه وهي تبكي بكاءًا مُرًّا. كانت تجلس في الشمس وكان الجو حار وكنت أنا ارتعش من بردي الداخلي، لكنني في تلك اللحظة أدركت أن الله وضعني في زمرة المبتلين كي أتحسس آلامًا ما كنت لألمسها وأنا جالسة في بيتي ومستقري وحياتي الآمنة والدافئة. شعرت في هذا اليوم أني أعبر النار كي أتطهر وكي أنضج، وها أنا نضجت. مرت السنوات عليَّ، فأتممت الأربعين وجاوزتها، أدركت أن تلك المرأة الثلاثينية المشاكسة لم تعد موجودة، أنا التي كانت، لم تعد حقًا حاضرة.

حين شارك زوجي في الثورة كتبت مباهية أنني أتقبل قدري إذا استشهد أو إذا أصيب، فها أنت تُدخِلني حقًا في التجربة، ليس مُصاب ثورة ولكنه مُصاب، وها هي الشجاعة حقًا تملأ قلبي لكنها لا تُطفِئ الألم ولا تُوقِف الدموع.

منذ أربع سنوات وأنا أصلي وأناجيك، حتى بهتت الكلمات في حلقي فصرت أشعر أن كل اللغة لم يعد لها معنى وأن كل الكلمات التي وصلت إليك مع دموعي وصلواتي لم تكن ذات فائدة. كيف وأنا أعلم أنك القادر تمامًا، وأنه لا يعجزك شيء، وأنك الرحيم الرؤوف الودود، أبكي كثيرًا بين يديك لأني أعلم بكمال قدرتك وأدرك أنني أُحدث مالك الملك الذي لا ينازعه في الملك شيء. أعلم كثيرًا عن رحمتك التي اختبرتها حقًا، فكيف أيها الملك تدعني في عجزي وحيرتي وألمي وأنت الذي لا تحملنا ما لا طاقة لنا به، فارفع ابتلائك، ارفع ابتلائك.

الفصل الأول

نصرو المحبة منه وإليه

نصرو: المحبة تليق به

لا يعلم أبناء أحمد نصر الدين ما كانه أبوهم حقًا.. ربما لا يدركون أن خلف ذلك الرجل الجالس مفتقدًا لنصف قدراته الجسدية والذهنية يكمن ساحر، لا ليس ساحرًا، عصفورًا، عصفورًا "متدلع"، عصفورًا ريشاته ملونة ينثر البهجة أينما كان.

لم يخيفني الزمن قدر ما يخيفني الآن، وهو يتدفق في مساره بقوة ونحن على هامشه نحاول استعادة نصرو، نصر، البرنس كما يناديه أصدقاؤه، فهل سننجح؟

حينما يتملكني اليأس، أجلس على أريكتي واستحضر صورته القديمة، وأخبره عما يفعله بي الفقد، أحكي له كثيرًا عن عجزي وقلة حيلتي.

في بعض الأحيان أسمع مواساته لي وأشعر بقلبه يحزن لأجلي.

كان بريئًا حقًا. حين التقينا للمرة الأولى سألته ماذا تفعل؟ أخبرني أنه يكتب ويرسم ويؤلف الدراما ويخرج، وقتها قلت لنفسي: من هذا المجنون الذي لن يكفيه عمرًا واحدًا ليحقق كل أحلامه؟

ببراءة مفرطة يخوض الحياة كمثقف وصعلوك أحيانا، كمناضل وفنان، يجمع الأضداد وكأنه قبس من روح الكون.

لم أكن أعلم أن حبًا صغيرًا ينمو بقلبي تجاه نصر. حينما هَلّ علينا بطلته الباسمة ونحن جالسون بحديقة الجامعة، أنيقًا -كعادته- مرتديًا قميصًا ورديًا فاتح اللون، خارجًا لتوه من المعتقل، بعد حبس استمر خمسة عشر يومًا. كانت طلته هي البشارة التي عرفنا بها أن كل المعتقلين خرجوا وعادوا لبيوتهم وأهلهم. أما أحمد فكنا نحن أهله وكانت الساحة الخضراء بالجامعة هي بيته. من يومها أدركت أن هذا الفتى ينشر الفرح أينما حل. سيظل أحمد يحكي عن هذه الحبسة دائمًا بوصفها نزهة، كان يعلم جيدًا أن خمسة عشر يومًا لا تساوي نضالًا ولا تحرر أوطانًا.

نخرج من الجامعة في جماعات نسير في شوارع وأزقة وميادين، ونحن نغني.. نغني لهذا الوطن، أتفاجأ الآن أن أحمد الذي فقد كثيرًا من ذاكرته مازال يتذكر وبقوة أغنيات الوطن والحرية.

صاحبت أحمد حين كنا صغارًا جدًا، كنا طلابًا في الجامعة. قضينا أربع سنوات كاملة في مودة الصداقة الخالصة، حتى كان ما شعرت به في الأيام

الأخيرة من شهر مايو سنة 1997 مفاجأة لي. هل أحب أحمد حقًا؟! هل يشرق كل هذا الفرح في حياتي؟

هاتفني بعدها بأيام وقال لي: "بحبك.. وراضي معاكي بالقليل". من يومها ولأحمد نصر بصمة وعلامة في كل شيء في حياتي، بداية من كيف أفكر وحتى كيف اختار ملابسي، نتناقش معًا كل يوم في كل شيء وأي شيء. استطيع أن أخبرك برد فعل أحمد نصر الدين في كل موقف، ورأيه في كل قضية، الألوان التي يفضلها، ماذا سيأكل الآن، النكِات التي سيُلقيها، والمرأة التي ستعجبه أثناء سيرها في الشارع.

هو أيضا -وبحسب أصدقاء- كان يقول لهم الآن ستتصل بي حنان، فيرن جرس الهاتف بمكالمة مني.

هذه المحبة التي طبعت ملامحنا بذات التعابير، فكان يظن بعض من كنا نلتقيهم أننا أخوة. لم يكن يزعجني هذا، فقد فهمت لماذا كانت المرأة الفرعونية تتغزل بحبيبها بقولها يا أخي.. تلك الإخوة التي هي أكبر من إخوة الدم وحتى من عاطفة الحب.

أثناء القبلة الأولى رأيت في السماء عصفورين يتبادلان القبل. كنت أحكي لأحمد هذا المشهد فلا يصدقني، ويظن أنه من ضمن خيالاتي العاطفية، وما همني أن يصدق. كنت مجذوبة بكاملي لهذا السحر الذي يخلقه أحمد نصر الدين في المكان.

في البيت يصنع أيقوناته كاملة، تزين جدرانه صور ليوسف إدريس ونجيب محفوظ وصلاح جاهين والشيخ إمام. فراشي الرسم تتألق في جراب من الجينز يصنعه بيديه. تصدح أغنيات سيد درويش والشيخ ياسين وعبد الوهاب. نغرق سويًا في التراث الصعيدي. نقرأ لصنع الله إبراهيم وإبراهيم أصلان وإبراهيم عبد المجيد. ندخل عالم الرسامين، يحب محمود سعيد وجوجان، مناسب هذا جدًا لشخصيته التي تشبه طبيعة بكرًا عصية على الانقياد إلى داخل النسَّق.

وسيمًا، تحسدني الفتيات عليه، أعرف هذا، أعرف أنني في عرف المجتمع غير جميلة، لا يحب الناس السمراوات وهو يحبني، لا يحب الرجال القصيرات، وهو يحب قامتي القصيرة، يصفني بالبطة. ظل يحبني حتى صرت جميلة حقًا، هذا الجمال في ملامحي صنعته محبة أحمد نصر الدين، فكلما أحب فيَّ ملمح صار أنثويًا أكثر، وكلما تغزل في شيء من روحي كلما صرت جميلة. يجلس أحمد الرسام فيرسمني مهووشة الشعر نحيفة كما كنت، أرى نفسي في مرآة روحه فأحبني أكثر.

تناديه الفتيات الجميلات بـ"نصرو" على سبيل التدليل، فاستعير التسمية بلا تحفظ، أحبه هكذا، هو نصرو الوسيم الذي يحب الفتيات ويحبونه. يليق هو بالمحبة وتليق به، هو الرائق كنبع ماء، المشرق كشمس، المندفع كالطبيعة البكر، الساحر كلحظات الفجر الأولى، الواسع كبحر.

عشنا معًا سنوات طوال في أطوار متعددة، عشنا سنوات كصديقين، كنت

عرابة إحدى علاقاته العاطفية ذات يوم، قبل أن نصبح حبيبين لسنواتٍ أيضًا، وبعدها أصبحنا زوجين لسنواتٍ أكثر وأكثر.

في قلب نصرو نصف عمري الذي مضى وأكثر، وفي ابتسامته التي تطل بخجل اليوم كل الأمل الذي ينمو بقلبي حتى يعود ذلك العصفور ينشر برفرفة جناحيه بهجة الدنيا.

ليلة 25 مارس

متى بدأت الحكاية؟ في اللحظات الأخيرة و قبل أن تبدأ السطور الأولى من الحكاية، كان أحمد يحكي لي كيف أن بلطجيًا مسلحًا هجم عليه الإسبوع الماضي في هذا المكان، المكان نفسه الذي وقع فيه الحادث. أخبرني أحمد أن البلطجي هو في الغالب أحد السجناء الذين تم إطلاقهم من سجن وادي النطرون القريب، وأخبرني أيضًا أنه رفع عليه السلاح لكن أحمد لم يخف، وحين وقف أمامه بشجاعته المعهودة خاف ورحل. كان أحمد يحكي لي وكأن هذا هو المشهد الأخير من حياتنا القديمة وكأن هنا انسدل الستار لتنتهي قصة ولتبدأ قصة جديدة.

أحيانًا أقول لنفسي وكأنها كانت امرأة غيري تلك التي كانت متأنقة في تنورتها القرمزية وطلاء أظافرها المختار بعناية على الطريقة الفرنسية. كان صوت الشيخ إمام ينبعث من سماعات السيارة وهو يغني "يا بحر قول للسمك"

في أيام لاحقة، حاولت ارتداء نفس التنورة وسماع نفس الأغنية وطلاء أظافري بنفس الدرجة، لكن لا شيء يفلح في أن يعيدني تلك المرأة التي كنتها ولا أن يعيد عالمي الذي كان مرتبًا ومريحًا.

بعد دقائق كان أحمد راقدًا فاقد الوعي بجوار سيارة مهشمة تمامًا، كان طويلًا وأنيقًا وجميلًا وكأنما هو من حكى عنه ماركيز حينما كتب "أجمل غريق في العالم"، قذفته السيارة بعيدًا عنها لأمتار، وكأنما تقذفه الحياة لمنطقة أخرى غائمة ورمادية ومربكة وهي الغيبوبة.

اقتربت من الطبيب حديث التخرج الذي كان يتعامل مع جسد أحمد في نقطة إسعاف وادي النطرون أسأله لعله يطمئني، بلهجة عصبية أخبرني أنه يحاول أن ينقذه من الموت وأمرني بالابتعاد. تنحيت جانبًا وبكيت، أشفق عليَّ شرطي الحراسة وأخبرني أن هذا الطبيب مجنون وعلي ألا أصدقه، نفذت كلام الشرطي، نفذته لاحقًا أيضًا في مواقف كثيرة، فكلما أخبرني طبيب أن حالة أحمد صعبة تجاهلته واعتبرته مجنونًا، فيما بعد أدركت أن هذا الطبيب الشاب أنقذ أحمد بمهارة لا تتناسب مع حداثة سنه.

في المستشفى نجحت صديقاتي في جعلي أضحك. ضحكت بينما كان قلبي كسيرًا تمامًا، هذه هي الضحكة التي لازمتني لسنوات بعدها، لم استطع أبدًا أن أشعر أن قلبي قد أُجبرت كسوره رغم أنني أضحك كثيرًا. هذه الليلة التي وقعت فيها الحادثة كانت الذكرى السنوية الأولى لرحيل أمي، وفي نفس الساعة تمامًا، سُجل الحادث في الدفاتر الرسمية بتاريخ

اليوم التالي، كانت ثلاث ساعات قد مرت حتى تدخلت الدولة لإنقاذنا من خلال سيارة إسعاف بسائق متراخ. أفكر كثيرًا في أمي كانت طيبة جدًا وكانت تخاف كأنها طفلة، أفكر، هل أرسلت أمي روحها إلينا في تلك الليلة كي تأخذنا نؤنس وحشتها في العالم الآخر، لا أدري، ما أعلمه أننا اقتربنا جدًا من الموت.

الـمَطْهَـرُ

تعرفت على عالم المستشفيات، صرنا نقف بالساعات أمام أبواب العناية المركزة في انتظار خروج طبيب يقول أي شيء يمنحنا الأمل.

أخذتني صديقتي لبنى عفيفي من يدي وعلمتني أن أقضي بقية اليوم في زيارات بقية المرضى، صرنا نقف بالتتابع أمام أسرّة المرضى وندعو لهم ونبتسم في وجوه أُسرّهِم لعل الابتسامة تخفف بعضًا من قلقهم.

في هذه الأثناء عرفت محمد، طفلًا في العاشرة من عمره في غيبوبة على إثر حادث طريق، كانت حالته حرجة للغاية، وكان بحاجة لإجراء فحوصات مكلفة لم تكن أمه تقدر على تكلفتها. لم أكن أعرف أن محمد هو أحد أطفال الشوارع الذي هجر أسرته واختار طواعية حياة التسول في محيط مسجد الـحُصرى حتى صدمته سيارة في هذا المكان، لم أكن أعرف هذا إلا بعد أن توفاه اللـه.

رأيت أمه تبكي في مدخل المستشفى فأدركت أنه رحل. اصطحبتها واختارت هي مكانًا لتجلس وتبكي، جلست معها. اختارت بقعة حارة جدًا وكأنها في عين الشمس، جلست تبكي وبكيت بجوارها، كانت حرارة الشمس تضرب فوقنا مباشرة، لكنني كنت ارتعش من الاحساس بالبرد. هل كان الاحساس بالخوف، أم الاحساس بالوحدة، لم أكن معتادة على خوض التجارب بدون أحمد الذي كان راقدًا فاقد الوعي في العناية المركزة. أحمد الذي جلبني لكل هذه التجارب ثم رقد مستكينًا في غيبوبة كأنه يحصل على استراحة.

الحرارة الشديدة للشمس فوق رؤوسنا كانت تشعرني أنني في الـمَطْهَر، في المكان الذي قد أتطهر فيه تمامًا من آثام حياتي السابقة، في المكان الذي سيمنحني الصلابة التي تلزمني لبقية التجربة. ربما ولدت ولادة جديدة تحت قيظ الشمس في ذلك اليوم. أفكر كثيرًا لماذا اختارت أم محمد تلك البقعة الحارة بجوار المشرحة، هل كانت تدرك حاجة روحها هي الأخرى للتطهر.

في الأيام التالية مات إسماعيل وهو فلاح فقير أب لبنات صغار، كان قد تحسن كثيرًا، لكنه وبعد خروجه من الرعاية المركزة تم وضعه في العناية المتوسطة بلا خدمة طبية حقيقية. كانت الممرضات يتكاسلن عن رعاية المرضى، إحداهن تتحجج بأنها حامل والأخرى تستحي من ظروف عملها التي تحكم عليها رؤية المريض عاريًا في بعض الأحيان، تدهورت حالته ومات.

كنا في مستشفى حيث الموت يطوف كل يوم ويختار رأسًا من الرؤوس، يتعجل رحيل بعضها ويرجئ الأخرى. كنت خائفة وفي كل يوم كنت أبحث عن خيط أمل، عن إشارة تقول لي أن هناك بابًا للنجاة.

في هذه الأثناء كان أحمد راقدًا في العناية المركزة فاقد الوعي وكنت أنا في المنزل أكتب له رسالة عن الأمل. لم يكن بمقدوري التسليم بفقدان الأمل كما استسلم الأطباء. كنت أسمعهم في حواراتهم الجانبية يصفونني بالواهمة وأن هذا الوهم بفعل الحب أو التعاطف، وأنا اعترف بالحب والتعاطف، الحب طاقة شفاء والأمل يصنع المعجزات لكنهم لا يعلمون.

وقفت أمام طبيب حديث السن لكنه صاحب سطوة في المستشفى لأنه الوحيد الـمُعين بين زملائه المتعاقدين، ما يُعني أنه موظف حكومة، نظر لي نظرة ملؤها العجرفة والتعالي وفند لي علميًا كل آمالي في شفاء زوجي. عقدت الدهشة لساني فبادرته أختي قائلة "قل لها إن شاء الله يُشفى، قل لها ربنا كبير"، قال لها متعاليًا "عاوزاني أكدب؟؟". في الأيام التالية كنت أتفادى لقائه حتى ولو عرضًا في طرقات المستشفى متمسكة بكل أوهامي حول إمكانية شفاء أحمد وعودته كما كان.

بعدها بشهرين كان مدير الرعاية المركزة في مروره اليومي في المستشفى فوقف مطولًا أمام سرير أحمد ليقول لمساعديه "سبحان الله، حالة أحمد تثبت أن هناك شيء ما أبعد من العلم والطب".

حين يفقد الطبيب قلبه ويتعامل مع حسابات العلم الجامدة يصبح علمه شرًا. حسابات الورقة والقلم تليق بالصيارفة ورجال البنوك ولا تليق بالطبيب الذي منحه الله قبسًا من روحه، الله يشفي، يشفي لكن بيد الطبيب.

الأمل صعب ومُرهِق ويبدو لي اليأس أحيانًا هو الخيار الأسهل كثيرًا. قد يكون هذا مقبولًا لشخص من عوام الناس مثلي لكنه لا يليق أبدًا بالطبيب ولا بأن يكون سياسة متبعة في مؤسسة طبية يفترض بها أن تقدم الشفاء للجميع.

الـحُـزن

أدركت أن رحلة أحمد ستطول، كان ما يزال في العناية المركزة، لكني أدركت أن القصة لم تعد قصة يوم أو يومين أو حتى أيام. في هذه الليلة نظرت لوجهي في المرآة وقلت لنفسي، ماذا إذا ما تصالحت على الحزن؟ لا شك أن للحزن جمال ما سوف يَسكُنني، منذ ذلك اليوم سكن الحزن قلبي وروحي.

وأنا صغيرة كنت أتأمل كثيرًا في الفكرة السائدة "أن الإبداع لا يأتي إلا من رحم الحزن" وأتساءل لماذا لا تعمل الروح مع البهجة والفرح. كانت نظرية بائسة وقديمة، لكنني في تلك الليلة ظللت أعدد لنفسي فوائد الحزن حتى أتقبل إقامته الطويلة في قلبي.

كان أحمد يشاكسني كثيرًا فيظل لساعات طويلة يتغزل في جماليات الوجوه الحزينة الشاحبة. كان يغيظني أنا ذات الوجه الباسم حتى في

أحلك الظروف، كنت أصدق مشاكساته وأظل لساعات أتميز من الغيظ على هذا الذي يحب الوجوه الحزينة، ربما لو أفاق من غيبوبته ولمس حزن قلبي لأحبني أكثر وأكثر.

في أحد الأيام الصعبة حيث كان أحمد ما يزال في العناية المركزة، كانت حالته حرجة ولم نكن نتلقى أي تطمينات من الأطباء. في هذا اليوم وقف وليد نصر وقال كلنا نعاني من الانهيار، ماعدا حنان، ماذا تفعلين كي تظلين صامدة؟؟ تلقيت سؤاله بمرح وأخبرته أن السر يكمن في الفيتامينات. كانت حقيقة الأمر أنني أتآكل من الداخل، بينما أحاول الحفاظ على الهيكل الخارجي للإنسانة التي كنتها سليمًا، لعله يفيق من غيبوبته ذات يوم ويحتاج لوجهي الباسم.

كنت أطلب من كل الذين يقومون بزيارته من الأهل والأصدقاء ألا يبكوا أبدًا أمامه، كنت أصدق أنه يشعر بنا. أتماسك طيلة النهار، وفي الليل أبكي بكاءًا مُرًّا يتناسب مع حجم الحزن المختفي في قلبي. وفي الصباح كنت استيقظ تعيسة لأنني أواصل الحياة، كان الموت أرحم من كل هذه التجربة.

افتقدت صديقي ورفيقي الذي شاركني سنوات طوال، كان جديدًا عليَّ أن أجرب الحزن أو الفرح وأنا بمفردي، فمَن سأحكي له عن هذه المشاعر الصغيرة والكبيرة التي تطرق باب قلبي. كانت مطرقة الحزن الثقيلة تهوى عليَّ ولا أحد يرى ما تفعله في روحي سواي.

ذات نهار اشتريت كراسة خضراء وظللت أكتب رسائل لأحمد عله يقرأها بعد أن يفيق من غيبوبته، لكنني أيضًا لم أحك له عن أحزاني. كتبت له عن الحب وعن الأمل، كنت أريده وهو في غيبوبته أن يعلم أن انتصاره على الهوة المظلمة التي ابتلعته ممكنًا، ظللت أُبشر بالأمل بينما قلبي حزين.

التأهيـل

حين خرج من المستشفى بعد ستة أشهر ما بين الرعاية المركزة والمتوسطة، كان أحمد ناحلًا جدًا، فقد كل عضلاته حتى أن الممرض حمله بين يديه كطفل رضيع. لم يكن قادرًا على الكلام ولا الحركة، بالكاد يفتح عينيه نصف فتحة. كان شكله مثيرًا للأسى.

لم أنس أبدًا ذلك اليوم في المستشفى، كان الممرض قد جهز المشهد ببراعة كي يفاجئنا بأن أحمد صار قادرًا على الجلوس، على كرسي أمام فراشه بالمستشفى. نظرت لوجهه الذي صار هَرِمًا وكأنه شيخ في التسعين وربما جاوز المائة، لم تكن قامته قادرة على التماسك، كانت ملامحه خالية من الحياة. كنت أواصل الصبر شهرًا وراء شهر في المستشفى وأنا انتظر ذلك الفتى الألمعي الوسيم أن يعاود الظهور، بكيت، كانت هذه المرة الأولى التي أسمح لنفسي بالبكاء أمام أحمد.

في البيت صارت مهمتنا أن يستعيد أحمد ملامحه، أن يستعيد حياته، هذا ما يطلقون عليه في الطب اسم التأهيل. اشتريت كتابًا ضخمًا حول المخ البشري وعمله، كي أعلم المزيد عن هذه الآلة الغامضة التي نحثها على استعادة العمل.

احتاج أحمد الكثير من الجهد، غذاء غني بالبروتين المكثف كي يعيد بناء العضلات، جلسات علاج طبيعي مكثفة أيضًا، الكثير من الحكي والكلام لعله يتذكر حياته الفائتة، وقبل هذا وذاك، كثير من الصبر، لعله صبر الملائكة لا البشر.

يتحسن يومًا بيوم، تحسنًا بطيئًا لكنه كان كافيًا لإطعام الأمل في نفوسنا. مرت علينا لحظات بدت فيها الأشياء العادية عجائبية وكأنها من المعجزات: تمارين الوقوف، التي كان يقوم بها الطبيب والممرض وأنا وأمه لتدريبه على الوقوف في شرفة منزلنا. كانت العملية صعبة وقاسية على عضلاته التي بالكاد يعاد بناؤها فينفعل لاعنًا إيانا بكلماتٍ بسيطةٍ بالكاد ينطق بها.

تنتهي تدريبات الوقوف لتبدأ تدريبات المشي، نأخذه رغمًا عنه في جولات تمشية في الشوارع ثم في المولات، يتعب فينفعل ويسبنا. نأخذه لاستراحة في أحد المقاهي لعلها تذكره بعشقه القديم لها، يحتسي القهوة ويطالب بحقه في تدخين سيجارة.

يعتاد المشي وأن كان بقليل من الاتزان، فنواصل رحلة العلاج بكثير من

الصبر. مازالت الكثير من الأشياء الصغيرة تبدو كحاملات ضخمة للأمل، الحروف الأولى التي نطقها، الصوت الأول الذي خرج من حلقه، ضحكته الأولى، خطواته الأولى كخطوات طفل، حتى تلك القبلات الصغيرة التي كان يوزعها يمنةً ويسرًا. أحمد ربما هو مريض الغيبوبة الوحيد الذي كانت استجابته للأوامر الأولى في شكل قبلات يوزعها على الأقارب والأطباء والممرضات والعاملات في المستشفى، تمنحنا التجربة على قسوتها ما نتندر به فنضحك ونهزم الأسى.

يبقى أننا كأسرة واصلنا هذه الرحلة بمفردنا تمامًا، فمصر هذه الدولة ذات المركز المميز في حوادث الطرق لا يوجد بها مكان واحد يقدم جهدًا محترمًا في إعادة تأهيل ضحايا هذه الحوادث. قال لي طبيب ذات يوم أن من يكمل رحلته نحو الشفاء يفعل ذلك بالبركة، ها هو أحمد يقتنص البركة ويواصل الطريق، قليل من الشفاء وكثير من الأمل.

الزمن الذي ولى

أخبروني أن أحمد يسأل عني، هرولت من المطبخ إلى حيث يجلس، كان كمن يحاول التركيز في شيء ما ثم سألني "هو فين حنان كمال؟" بنفاذ صبر قلت له أنا حنان كمال، لكنه قال "لا، أريد حنان كمال حبيبتي، كانت جميلة وغلبانة". أشاح ببصره بعيدًا وكأنما يبحث في ذاكرته عن مزيد من المشاهد والقصص حول حنان التي كانت.

أعلم أن المرأة التي كنتها غير التي تجلس الآن على دفة الحياة تحاول أن تُعيد الأمور لطبيعتها التي كانت، كل شيء ربما سيعود، لكنني لن أعود، العمر لن يعود، الشباب الذي ولى لن يعود. هو يبحث عن امرأة رقيقة وغلبانة، تعرف كيف تختبئ في الظل حتى لا تزعج حضوره الذكوري الحاد. كيف أفعل ذلك وأنا أصارع الزمن، أحاول أن أعيده للحياة قبل أن أرحل أنا عنها، هو يبحث عن امرأة قديمة لكنه لا يعلم أن الموجة العاتية نسفت كل القديم في طريقها.

أعلم أنه يفيق وأن سؤاله دلالة على أنه يفيق أكثر وأكثر ويسترد أجزاء قديمة من ذاكرته. أنه بالأحرى يسترد ذاكرة المشاعر ويبحث عن الحب، الحب الذي كان يجمع بيننا كعصفورين صغيرين يلتقيان في دار السينما، يسيران في شوارع وسط المدينة شابين بصحة موفورة يملآن الدنيا بهجة وحيوية. الفتى الأنيق وفتاته الصغيرة يلتقيان في مطعم أنيق يحتفيان بالحياة، لا يعلم أننا لم نعد كذلك، رحل ذلك الزمن وتركنا نتبادل المحبة في أروقة المستشفيات. تحول الغرام لمحبة ملخصها الرغبة العارمة في إبقاء الحبيب على قيد الحياة، الرغبة في تحقيق هذا حتى لو كان الأمر مجافيًا لكل قوانين الطبيعة. الـمُحبة التي صارت وكأنها جاءت على ظهر عجلة حربية تخوض حروبًا أسطورية ضد الزمان والمكان وضد قوانين الكون إذا كانت تقضي بموتنا، كيف ستكون مثل هذه الـمُحبة رقيقة وغلبانة كما كانت في زمان ولى.

أسير بجانب ابنتي، أتأمل كيف تتحول الفتاة الصغيرة لصبية، تتأنق بحقائب اليد وأحذية الكعب العالي، أقول لها، هل تقلدينني؟ تقول لي لماذا أقلدك؟؟ أقول لها لأنني الماما، فتقول، كل المامات متشابهات، أتأمل جسدي الذي يستدير ليتشابه مع الكتل المصمتة لأجساد ملايين الأمهات، ضغط الدم العالي الذي يطاردني كآلاف الأمهات، الصلوات التي تمنحني السكينة وتمنح البيت السلام، الصلوات هي الحيلة التي بقيت بيد الأمهات عبر التاريخ، أدرك حقًا أنني تغيرت وأنني لم أعد تلك الحبيبة الصغيرة، لقد ولى الزمن وأخذني معه.

الثقب الأسود

مضت الآن أربع سنوات بعد الحادث. أحمد عصبي للغاية، لا أعرف كيف أقنعه أن كل هذا الزمن مضى من عمره بينما كان نائمًا في غيبوبة أو نصف غيبوبة. لا أعرف كيف أشرح له كل هذه التغيرات العاصفة التي تكاثفت علينا في أربع سنوات، أين كنا وأين صرنا؟ أين ذهبت أحلامنا؟ كيف كبر الأولاد هكذا وبسرعة؟

نسمع الموسيقى، فيسأل عن اسم شريط الكاسيت، أقول له أنني استمع للساوند كلاود، لا يعرف ما هو الساوند كلاود، يصر أن أرسل له الأغنية عبر الإيميل.

سيسمع الأغاني كأنه يسمعها للمرة الأولى ويشاهد أفلامًا قديمةً ويعتبرها طازجة، سينفعل بالفنون كأنه فتى في بدايات العمر، سيسألني الأسئلة ذاتها أكثر من مرة، وسيتلقى الإجابات ويعاود السؤال.

سيختلط عليه أمر المدينة التي نسكنها واسم الحي والتاريخ، وسأعاود في كل مرة تصحيح المعلومات.

يتصور في لحظة أنه ضيع امتحانًا مهمًا، أخبره أنه تجاوز الدراسة والامتحانات وأنه تخرج وأنه الآن رجلًا في الأربعين من العمر أب لثلاثة أطفال. ينفعل عليَّ، إذا كنا في العام 2015 فأين ذهبت السنوات السابقة كأنما سقطت سنواته في ثقب أسود، لقد فعلت كل ما استطع إلا القفز في الثقب الأسود لأستعيد سنواته الضائعة، لكن ليس في استطاعتي.

أحكي له الثورة، وعن الذين سرقوها، وعن بشر خُدعنا فيهم. يبدو الأمر كفيلم رعب، يسأل عن تفاصيل التفاصيل، وفي اليوم التالي ينسى فنعيد الحكي الـمُر.

يحكي لي عن أحلامه، هي أحلام قديمة للغاية، لم تنضج ذاكرته بعد لتذكر الأحلام الأحدث. لا أعرف كيف أحكي له أن العالم تغير كثيرًا جدًا، تغير فوق قدرتنا على التصور.

أتصور نفسي حين علمت أنني مريضة بالسرطان، لو كان أحمد بجواري كما كان زوجًا وحبيبًا وشريكًا، أحاول أن أتصور المحبة في عينيه وهو يواسيني، أتخيل ماذا كان سيقول لي، هل كان سيبكي مثلًا؟ هل كان سيقاتل من أجل الأمل؟ هل كان سيخفي عليَّ الأمور الخطيرة عن حالتي، أتخيل صورته كثيرًا وأتخيل كلامًا بصوته كي أصبر نفسي وأعوضها عن وحدة الروح في الإبتلاء الصعب.

أن الأصعب في تجربتنا هذا الزمن الذي يمضي تارك إيانا نحاول اللحاق به. أرواحنا ثقيلة كأنها معبأة بالرمل. يمضي الزمن ونحن هنا في أبعد نقطة في الذاكرة، حين كنا معًا حبيبين ممتلئين بالحياة.

رسالة لأحمد نصر في عيده الأربعين

ها هي لحيتك تكتسي بالشيب كما كنت تتمنى، وها أنت تدخل سن النبوة كما كنت تشتهي. لم يكن يخيفك التقدم في السن قط يا صديقي، وها أنت ذا تتقدم في العمر، جالسًا إلى جواري على كرسيك، لا يشغل بالك سوى تدخين سيجارة نمنعها عنك بأمر الأطباء.

هل تتذكر وعدك لي أنك ستكتب أولى رواياتك حين تبلغ الأربعين؟ وحين سألتك عن سر الأربعين، قلت لي إنها سر النبوة. فها هي النبوة تحوم حول رأسك الجميل، فأيقظه وعُد، عُد لنا كما كنت، فأنت لا تعلم كم افتقدك، لا تعلم كم يفتقدك كل هذا العالم.

لعلك نسيت، قبل يومين حكيت لك عن المشاريع الطموحة التي خططت لها بعد ثورة يناير، برقت عيناك انبهارًا بالأفكار، وكأنها ابنة عقل غير عقلك، وعدتني أن تواصل العمل عليها، لكنك لم تفعل. أعلم

أنك نسيت، فهذا الشئ المتآكل في ذاكرتك يحاصرك، وبقدر ما يحاصرك، يحاصرني. يحاصر رغبتي بأن تعود الحياة لمسارها المعتاد. يحاصر أملي في أن تعود.

قبل يومين حلمت بك، كنا نحلق معًا من أعلى فوق عالم مُترَب باهت ورمادي، إنه عالمنا. إنه باهت ورمادي ومُترَب، لأنه وحيد تمامًا، بعدما هجرناه نحو فضاء جديد، فضاء المرض. يشبهني هذا العالم، فأنا وحيدة بدون حضورك كاملًا، عالمي لا لون له، وحياتي لا معنى لها، وقلبي صار رماديًا من فرط الأسى.

لم يكن وجودك يا حبيبي يكملني، بل كان كل شيء، وكل الوجود. حتى ما إذا غبت، بدا كل شيء عدمًا أو مواتًا.

افتقد حواراتنا معًا، تلك الأفكار العظيمة التي تمدني بها، أو تحفز ذهني على إنتاجها. افتقد مناكفاتنا، ومنافستنا، والغيرة المهنية بيننا. كنت تتيه بموهبتك وأتيه بموهبتي، ويشحذ كل منا عزمه من أجل إثبات أنه الأفضل. لعلك تذكر، ها آنذا الآن وحيدة تمامًا، لا أرى موهبتي ولا أعمل عليها، فقط أراقب الريح العاصفة التي تحاول أن تقتلعني من جذوري.

في غياب عقلك الجميل، لا أعلم بماذا سأتشبث ولا لماذا أتشبث، لا أعلم أصلا إن كنت سأصمد ولا لماذا ينبغي عليَّ أن أصمد.

كنت اليوم أتمشى في المول، وكلما هممت أن اشتري شيئًا ما لي أو لك، أشعر أنه لم تعد لنا حياة كي نرتدي فيها ثيابًا أنيقة، فأتوقف عن الشراء. تذكرني الثياب الأنيقة بك، تذكرني أنت عمومًا بكل بهجة في هذه الحياة. في غيابك توقفت الحياة وتوقفت البهجة، صار ما يعاش هو الحد الأدنى الذي يضمن للحياة استمرارها، لعلها ذات يوم تعود كما كانت.

افتقدك يا عزيزي. افتقد عطاءك الذي كان وفيرًا تجاه هذا العالم. افتقد صحبتك التي لطالما طمأنتني، وأنا أخوض غمار الأزمات. أزمة وراء أخرى، وأنت تخبرني أنني قوية، فأكون قوية، تحقيقًا لحسن ظنك. تتلو لي كثيرًا آية: ﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾. هل كنت تدرك أنني لاحقًا سأحتاج إلى القدر الأكبر من الصبر والقوة في مواجهة الحياة؟

افتقد يا عزيزي حواراتنا معًا، خيط لا يقطعه النسيان، ولماعية ذهنية لا يطفئها انعدام التركيز. افتقد رعايتك وحنوك عليَّ بعيدًا عن هذا اللا اكتراث الذي صرت تواجه العالم به، افتقد إعجابك بنفسك، حضورك وزهوك.

ها أنت يا عزيزي تدخل سن النبوة، وأنا أعلم أنك قادر على أن تفلت من أسر هذا التيه الذي سقطنا فيه. أعلم أنك لو فعلتها تكون قد حققت

معجزتك. لا أقول لك افعلها لأجلي، فما هو أهم، هو أن الحياة التي تحلق بعيدًا عنا تستحق أن تُعاش، افعلها إذن من أجل الحياة. من أجل أن نستعيدها معا.

الفصل الثاني

مقابلة خاصة مع الموت

ما صنعه الحزن

كان يوم ميلادي الأربعين، حين تأكدت تمامًا أن هذه التكتلات الغريبة في جسدي هي سرطان الثدي. كنت قد ذهبت قبلها للطبيب مرتين، في كل مرة كان يُقسم لي أن ما أعاني منه هو مجرد التهابات تستدعي تناول مضادات حيوية، تناولت المضاد الحيوي مرة واثنتين وثلاث. في عيد ميلادي الأربعين تحسست حبيبات صغيرة تشبه حبات الترمس تنمو تحت إبطي، دون الحاجة للتأكد من الطبيب أدركت أن ما أواجهه هو سرطان الثدي.

لم تكن لدي معلومات حول الأمر، فمعرفتي الطبية محدودة وقاصرة. كل ما أعرفه عن سرطان الثدي أنه يخلق حبيبات صغيرة متورمة تحت الإبط، وأن المرضى يتعاطون الكيماوي وأن الكيماوي يتسبب في إسقاط شعر المرضى، هذا كل شيء.

كانت رحلتي للطبيب هذه المرة روتينية، فقد أكد الطبيب ما عرفته.

كان أخوتي ينتظرون خارج باب العيادة حين خرجت لهم باكية، بكيت كثيرًا في هذه الأيام.

وكأنني احتضن عدوًا داخل جسدي، لم أقدر على النوم. كانت دموعي تنساب غزيرة وساخنة، كنت خائفة، الأكثر من الخوف أنني كنت مشفقة جدًا على حالي، لماذا يحدث هذا لي. كنت مازلت أعاني من آثار حادث طريق عصف بزوجي وبحياتي كلها. سألت الله كثيرًا لماذا يفعل هذا بي الآن، فكرت كثيرا في مصير أبنائي، كلما مروا من أمامي زادت دموعي سخونة وانسيابًا، أخذت بعض الوقت حتى أفيق من الصدمة، وأخذت وقتًا أطول حتى أصل لمرحلة التسليم.

كانت بارقة الأمل التي رفعتني من هذا الانهيار هو اسم صديقة لي لمع في عقلي كالبرق. كانت صديقتي قد مرت بتجربة السرطان وشفاها الله، بحثت عن رقم هاتفها، حدثتها، كانت تلك المكالمة هي التي نقلتني من وضع الانهيار واليأس والإشفاق على الذات لمربع المقاومة، سأدافع عن حياتي، كان هذا هو القرار الذي اتخذته في تلك اللحظة.

كان عليَّ استكمال الفحوصات، لم تكن لي خبرة شخصية مع المرض، لم أكن أعرف كثيرًا عن الحقن والكانيولا والمحاليل والإشاعات والفحوصات، كان عالمًا جديدًا بالنسبة لي وكنت أشعر بالضجر من نهارات الانتظار المملة في معمل الأشعة كي ننتهي من فحص وندخل في الآخر، كنت أخاف كثيرًا من شكة الإبرة، ولا تستجيب أوردتي بسهولة للكانيولا. علمتني

صديقتي أن استعين بالله، وأظل أردد اسمه "يا شافي.. يا شافي" لعل ما علمتني إياه ساعدني كثيرًا على تجاوز هذه الأوقات الصعبة.

سألتني الطبيبة: هل لدي تاريخ عائلي؟ لا، هل أتناول طعام غير صحي؟ لا، هل أعيش في مكان مشبع بالتلوث؟، كانت كل إجاباتي بالنفي، كانت الإجابة الوحيدة هي "أنه ما صنعه الحزن بي".

كنت أتمتع بصحة جيدة طيلة أربعين عامًا من عمري، وفي أول أزماتي الصحية قابلت الوحش حسب تعبير صديقة. كان عليَّ إذن أن أبدأ رحلتي في مقاومة الوحش، وكان عليَّ قبل هذا وذاك أن أخلع الحزن من قلبي. كنت أدرك أن الحزن هو بيت الوحش، كيف أخلع الحزن من قلبي؟ هذه قصة طويلة، ربما تكون قصتي هي بالأساس قصة السعي وراء الفرح، سأحكي لكم لاحقًا كل ما حدث.

أوان الكيـمـاوي

حان أوان الكيماوي، قبل موعد الجلسة الأول طلبت من الطبيب وضع جدول زمني لكل شيء، أردت معرفة متى سينتهي كل هذا على وجه الدقة. كانت خطة الطبيب مدتها ستة أشهر. استسلمت تمام وقررت أن هذه الأشهر الستة ستكون وكأنها وقتًا مستقطعًا من حياتي. أخبرني الطبيب أيضًا أنه ليس في حكم المؤكد أن شعري سيسقط، وحكى لي عن نجمات كبيرات خضعن للكيماوي ولم يفقدن شعورهن، تعلقت بالأمل.

ذهبت لجلستي الأولى مستسلمة تمامًا، سبقتني أختي وخطيبها لمعمل الأشعة للحصول على نتائج فحوصات الكبد والرئة ومسح العظام، سلمنا صور الأشعة للطبيب وجلست في الخارج انتظر، حين دخلت كانت تعبيرات وجهه غارقة في الشفقة، قال لي "الخبر الجيد هو أن الكبد والرئة سليمان"، "لكن لديك سرطان على العظام".

استغرقت بضع دقائق حتى أفهم، كنت كمن يغرق تمامًا في كوب مليء بالماء. غيَّر الطبيب خطة العلاج، استبعد العلاج الكيماوي. خطة العلاج الجديدة تعتمد على العلاج الهرموني والزوميتا وهي علاج لهشاشة العظام يستخدم أيضًا في حالات سرطان العظام. تحولت الجلسة الأولى للكيماوي، إلى جلسة أولى للزوميتا.

الجميل في الزوميتا أنها لا تؤثر على الشعر، لكنها تخلف آلاما مبرحة وحمى. قضيت ليلتي التالية ارتعش من الحمى، وأعاني من ألم في كل مكان في جسدي.

لم تسترح صديقاتي لخطة الطبيب الذي استبعد الكيماوي، أخذتْ زينب خيّر ملف الأشعة، ذهبتْ لأكثر من طبيب، كان كلام الأطباء حاسمًا، إن لم أبدأ خطة الكيماوي في أسرع وقت فحياتي في خطر.

كنت في فراشي أعاني الآثار الجانبية للزوميتا، لكنني مستريحة تمامًا لفكرة استبعاد العلاج الكيماوي. لم تكف صديقاتي عن محاولة إقناعي ابتلاع مرار الكيماوي، خشين أن يوضحن لي مستوى الخطر الذي أعاني منه، اتفقنا على الذهاب لطبيب ثالث لترجيح أحد الرأيين.

بعدما تفحص الأشعة، سألني د. هشام الغزالي ماذا أنتِ فاعلة، قلت له "ما ستقرره أنت"، نادى على فتاة جميلة تُدعى أسماء من فريق التمريض وقال لها "لا تخرجوها من هنا قبل أن تأخذ جلسة الكيماوي".

وضعت لي الممرضة غطاء رأس يفترض به أن يحمي الشعر من تأثير الكيماوي، كان شيء بارد للغاية يغلف رأسي وأنا أبدأ رحلة الكيماوي مع هذا المحلول الأحمر الحارق. لم أكن أعرف ما أنا مقبلة عليه. كتبت تدوينتي الساخرة على صفحتي على فيسبوك أخبر فيها أصدقائي أنني "عاملة دماغ كيماوي وأن ما سأكتبه لتوي هو تأثير الكيماوي". مزحت كثيرًا جدًا، أرسل لي الكثيرون عبر الرسائل مقدرين للبساطة والمرح التي أتعامل بها مع التجربة، قبل أن أرد على الرسائل كنت أغرق في نوم عميق.

سبب لي الكيماوي لاحقًا تعبًا لا يوصف، أكبر من الغرق في النعاس، أكبر من فقدان الشهية واعتلال المزاج والغثيان. كنت ملقاة في سريري، أفيق لدقائق قليلة أشرب شربة ماء ثم أسقط مجددًا في النوم. أحاول أن أغادر غرفتي للصالة كي أقضي ولو ساعة مع أسرتي نشاهد التلفزيون أو نتحدث. افتقد حياتي.

أفقت قليلًا من تأثير الكيماوي، أخذت أولادي للنادي. كنت مشفقة جدًا عليهم وهم يرون أمهم في مشهد اللا حول واللا قوة. لهوت معهم قليلًا في ملعب الكُرّة، ثم ذهبت لمقعدي رتبت الحقائب والسترات كوسادة وواصلت النوم جالسة على مقعدي.

ثم قررت ما هو أبعد من ذلك، اصطحبت الجميع في رحلة نصف العام الدراسي للأقصر وأسوان. كان قلبي يقول لي، أنتِ تحبين أسوان، إذا انتهت رحلة السرطان بالموت القريب فستكونين حققت حلمك بزيارتها، وإذا

قُدر لكِ الشفاء فستكون هذه الرحلة هي إحدى أدواتك للشفاء.

في أسوان استمتعت كثيرًا جدًا بالنيل والطبيعة والهواء والدفء، لكنني كنت حزينة، بكيت في بعض اللحظات. حرصت ألا يلحظ الصغار دموعًا على وجهي. كان كل شيء جميلًا جدًا، وكأن هذه الدنيا هي مشهد سينمائي بديع أوشك أنا أن أغادره، فأبكي، أبكي بكاءًا مودعًا.

في القطار وبينما نحن عائدون للقاهرة سقطت أولى خصلات شعري، أمسكتها بيدين مرتعشتين. كنت في لحظة الحقيقة، وها هي التجربة تبدأ، خصلات شعري الأحمر المصبوغ والمصفف بعناية تسقط في يدي.

وصلنا للمنزل، وضعت الحقائب ونزلت فورًا لدى مصفف الشعر. طلبت منه أن يقصر شعري لأقصى حد، وأن يعالج فروة الرأس العارية مكان الخصلات التي سقطت، ببراعة محترف نفذ مصفف الشعر ما طلبته.

ما حدث بعد ذلك كان انهيارًا سريعًا جدًا، كنت أنام لأصحو كل يوم على مزيد من الخصل تسقط على وسادتي، قبل أن يحين موعد الجلسة التالية كنت قد فقدت شعري كله.

تتجاوز الآثار الجانبية للمحلول الكيماوي الأحمر المعروف باسم "فيك" مسألة سقوط الشعر، فقد احترقت أوردتي تماما حتى أصبحت غير قادرة على فرد ذراعي. اكتست بشرتي بطبقة كالحة السواد خاصة في الوجه واليدين والقدمين. كنت كلما نظرت في المرآة اكتشف أنني تحولت

لامرأة أخرى، امرأة تتآكل ملامحها تدريجيًا. بعد سقوط شعر رأسي، سقط حاجبي ورموشي، كان الانهيار أكبر من أن أوقفه.

حينما أتذكر هذه الأيام، أقول نعم، لقد انتهت المرأة القديمة تمامًا وولدت مكانها امرأة جديدة. يحق لي إذن أن أحتفي بنفسي، وحين أراجع مخاوف الأطباء التي قيلت لأصدقائي وقتها، مثل ستفقد القدرة على الحركة، ستموت قريبًا، أحمد الله أنني مازلت أسير في الشوارع، أعاند مرضي أحيانا فأتقافز كفراشة، أرقص مع طفلتيّ الصغيرتين، أشاكس زوجي. مازال لدي القدرة أن أطهو لهم، أتعلم الخبز، صرت أعتقد تمامًا أنني سأتعلم أشياءًا كثيرةً في ما بقى لي من العمر. مازلت أحيا. مازلت أحيا، فلأعيش إذن كل دقيقة قد كتبها الله لي ممتلئة بالحمد.

شعري القصير جدًا

أنا أحب شعري، في كل المقابلات الأولى مع الأطباء كنت دائمًا ما أسأل عن شعري، هل سأفقده. تلقيت إجابات مطمئنة وأخرى مراوغة، في الحقيقة لا إجابة حقيقية حول هذا السؤال، الحالات فردية تمامًا.

انتهت الثلاثة أشهر الأولى من الكيماوي، وقرر الطبيب أن أواصل العلاج لكن بنوع مختلف من أنواع الكيماوي. لحسن الحظ أن الكيماوي الجديد لم يحرق فروة رأسي ناصعة البياض، وبدأ شعري ينمو من جديد، شعرًا قصيرًا جدًا، شعر شبيه بالزغب الذي ينبت فوق رؤوس المواليد الجدد.

أحب أن أحكي لكم عن شعري القصير، القصير جدًا، لدرجة أن البعض يحدق بي في كثير من الأوقات. لعل أحدهم يتصور أن هذه المرأة لابد وأنها ارتكبت ذنبًا كبيرًا، فعوقبت بحلق شعرها. ولعل آخرين يفكرون

في أنها جريئة جدًا، لدرجة أنها استسلمت لصرعة الشعر القصير جدًا على نهج الهوليوديات. ربما يأتيه ذلك الخاطر السخيف، أنها مسترجلة، أما الفتيات الصغيرات، فتواتيهن الجرأة أحيانا لسؤالي: لماذا صار شعرك قصيرًا جدًا هكذا؟

حين فقدت شعري جربت كل الحيل التي تجربها النسوة في ظروف مشابهة. أضع غطاءًا خفيفًا للرأس وأحاول قدر المستطاع أن يبدو أنيقًا. أجرب أيضًا الباروكة أو الشعر المستعار، حينما تهادت موجاته ناعمة على وجهي، تأكدت أن هذا الشعر هو لامرأة أخرى. ناعم تمامًا مثلها، ليس شعري ولا يناسبني، إنه شعر امرأة أخرى، ولذا يسمى بالشعر المستعار، وأنا لا أريد أن استعير شعر أحد، فخلعته.

كنت قد فقدت رموشي وحواجبي هي الأخرى في مجزرة الكيماوي. كنت قد فقدت ملامحي الحقيقية، وجهي لم يعد وجهي وعيناي صارتا مجرد فتحتان للإبصار، وشعرت وكأن فكي تحرك من مكانه، وأن ذقني تغيرت ملامحه. اكتسبت أيضًا كثيرًا من الوزن، أنا لم أعد المرأة التي كانت، كان كل ما بقي مني هو الصمود والأمل.

تعتمد طريقة عمل العلاج الكيماوي على قتل الخلايا. الكيماوي يقتل الخلايا السليمة والمريضة بلا تفرقة، كم خلية قتلت بداخلي؟ اسأل نفسي وأنا أتأمل شكلي في المرآة بشعري القصير جدًا، هو صبياني نعم؟ ربما يبرز خشونة ملامحي. لكنه يبرز أيضا قوتي ويعيد تعريفي كامرأة ذات ملامح

أفريقية. لكن الأهم من هذا كله، أنه صار ممثلًا لحياة جديدة تنبعث داخلي، ممثلًا لملايين الخلايا التي قتلها الكيماوي ثم عادت للحياة مرة أخرى.

هذا الشعر القصير جدًا الذي أتأمله كل يوم على أمل أن يكون قد نما ولو مليمتر واحد. يعيد لروحي ذلك الشغف الذي كان يفترض بها أن تكون غادرته بحكم السن. يعيد الاشتياق والأمنيات وأبدو أحيانا كطفلة صغيرة تتمنى أن تواتيها الظروف كي تشتري ربطات شعر على شكل وردة. أو أن يطول شعرها أكثر ليكون مناسبًا لتسريحة ذيل الحصان، هذا الشعر القصير جدًا يبدو تمامًا كنبتة أراقب نموها بأمل.

ننتصر على المرض. ننتصر على الموت. وننتصر على كل القبح والرداءة والهزيمة والكراهية. وننتصر حتى على الاستبداد والطغيان والفساد، بإمكاننا أن ننتصر حقًا، وبإمكاننا أن نواصل الحياة. شعري القصير جدًا يقول هذا لي كل يوم.

نوبـة ألـم

يخبرني الطبيب أنني سأظل أتعاطى الدواء الذي يسبب لي نوبات ألم وحمى ما بقى من عمري، أبتسم وأتقبل قدري، فما بين نوبة ألم وأختها يمنحني اللـه ثمانية وعشرين يومًا أفعل فيها الكثير.

لدي الكثير لأفعله فيما بقى من عمري، مازالت هناك كتبًا أريد أن اقرأها، وموسيقى لأسمعها ومعرفة لأحصدها في قلبي. مازال لدي الكثير لأحكيه لأبنائي. قبل أيام قلت لنور ابنتي أنها تشعر بالفن، ولذلك ستصبح فنانة. استجوبتني نور ابنة العشر سنوات مطولًا كي أشرح لها ماذا يعني "أنها تشعر بالفن"، وحكيت لها كثيرًا. أحب ذوق نور في الموسيقى وأتصورها في المستقبل فنانة في إحدى فرق الموسيقى بشعرها المموج وطلتها المشابهة لطلات جنيات الحواديت، ساحرة وطيبة. أحكي لها كثيرًا عن الموسيقى. لا أعلم هل سيمنحني اللـه بقية عمر لأراقب رحلتها مع الفن والحياة؟

أحكي لحمزة عن سري الكبير، بعدما يكبر الأبناء وتقل واجباتي تجاه الآخرين، سأحمل متاعًا قليلًا على ظهري وأبدأ رحلتي حول العالم. لا لن اختار الأماكن السياحية، ولن تكون وجهتي هي أوروبا وأمريكا، سأطوف البلاد المجهولة التي لا تظهر على الخريطة، سأعبر أنهارًا وأعيش في قرى وأصاحب البسطاء والمجهولين.

أقول لحمزة إنني أريد أن أعيش في كل القرى وفي كل المدن وأن أتسلق كل الجبال وأعبر كل البحور. أصاحب كل البشر. أريد أن أشعر بحرارة شمس الصباح في كل بقعة من بقاع الأرض. أريد حقًا أن أعيش كل الحيوات التي خلقها اللـه على الكوكب.

كطفلة مشاغبة شاغبت الموت حين اقترب، حين هاجمني وجدني مفتونة بالحياة فرحل. هل يرحل كثيرًا، هل تطول غيبته.. لا أعلم.

أعد على أصابع اليدين كم من السنوات أحتاج كي اطمئن على أبنائي، خمسة، عشرة، عشرين، تسألني سارة: "أنتي هتبقي عايشة يا ماما وتحضري فرحي؟". أرد بالإيجاب: طبعًا، وأنا غير موقنة بالإجابة. لا أخاف من الموت، لو جاءني الموت سأخلق منه نوعًا جديدًا من الحياة. أقولها ثم أضحك على البلاغة العنترية التي تعتريني. لا بأس فليأت الموت في وقته المحدد. تقول أمي لا يمنع حذر من قدر.

يتكثف الألم في مكان عميق داخل جسدي. لا أدرك على وجه التحديد

مكان انبعاث الألم. هل هو ساقي، أم ربما يكون في ظهري، أم في بطني. ما أسخف الألم حين يكون مراوغًا، كنقطة نار تتجول داخل جسدي. تمس روحي مسًا. أغمض عيني، فأبصر وردة عملاقة من نور تتفتح، وردتي ذات أشواك، لعل الأشواك هي كل ما خلفه الألم بروحي.

أعيد اكتشاف الألم. في حالتي بعض الألم رحمة، ومؤشر على السلامة، تقول لي الممرضة إن التكتلات الجديدة التي تتشكل في جسدي لا تخيف طالما أنها تؤلم، فتكتلات السرطان غير مؤلمة. ويقول لي الطبيب إن العلاج يخلق التهابًا مصطنعًا داخل الجسد يُمكِّنه من إعادة توزيع الكالسيوم على العظام المصابة، فالألم ضروري هنا للشفاء. أحمد الله على نعمة الألم، وأتذكر أنني قديمًا كنت كلما داهمتني الآلام، أتصور وكأنها سكين يمزق في بدني. فلنعيد تشكيل الصورة إذن، ولنستبدل السكين بكمنجات ناعمة، تعزف بأوتارها الحادة على جسدي المسكين. الصورة أكثر جمالًا. أليس كذلك؟

أقاوم فكرة ابتلاع مسكن قوي. أنا وألمي سنحيا معًا ما بقى من العمر، علينا إذا أن يعتاد كل منا على رفيقه، ويتقبله كما هو. أبحث عن النوم لعله يهدهد الألم داخلي. وحينما يهرب النوم، انتظر الصباح، حين ستشرق الشمس سيستريح الألم ويهدأ.

في موعدي مع طبيبة الأشعة، كي نحدد هل عاود السرطان هجمته مرة أخرى أم مازالت الرحلة آمنة. تضع الطبيبة أجهزتها الكاشفة فوق جسدي، وتحدق بعينين تشبهان عيني طائر. انتهت الطبيبة من فحصها وأخبرتني

أنني بخير، فشكرتها ممتنة وانصرفت وأنا أتلمس السنتميترات القليلة من الشعر التي نبتت فوق رأسي. الحمد لله لن أضطر إلى فقده قريبًا.

لدي أشياءًا كثيرةً لأفعلها بحياتي. كان ما منحته لي الحياة حتى هذه اللحظة قصيرًا ومشوشًا ومزدحمًا، ولم أتمهل لتحقيق ما حلمت به، طموحاتي ليست كبيرة. لا أريد أن أكون مديرة ولا مشهورة ولا ثرية إلا بقدر ما يعينني على الحياة. أريد أن أعيش لأنني أحب الحياة في ذاتها. أحب أن ألمس دفقاتها، وأحب الحرارة التي تنبعث منها، وأحب حتى الألم، كما أحب لحظات السعادة العابرة التي تشبه فقاعات الصابون الملونة، سأعد الله إن منحني مزيدًا من الوقت، أنني سأكف عن إضاعته في الأشياء التي لا تستحق، سأتوقف عن لعب المزرعة السعيدة، وسأكف عن القلق الذي يحرق العمر. سأمنح نفسي المزيد من أمسيات الاستلقاء على أريكة مريحة والتأمل. وسأرقص مع الموسيقى التي تعجبني في الوقت الذي يعجبني دون خجل، وسأحب من أحبهم بلا تحفظ، وسأكون جميلة بالرغم من الشيخوخة التي تقترب.

حضن سارة

كانت الفتاتان تقفان بجواري حينما كنت أتحدث في الهاتف حول إصابتي بالسرطان. شهقتا حين سمعتا اسم المرض الذي تعاني منه أمهما. كنت قد أنهيت جلسة الكيماوي الأولى ومرت دون أن يتجاوز فهمهم لما هو أبعد من "ماما تعبانة شوية"، لكنهم صاروا يعرفون الآن أنه سرطان. كان التحدي الأكبر بالنسبة لي أن أخلع من نفوسهم الهلع المرتبط بأنهم قد يفقدون الأم قريبًا في معركتها مع مرض خطير. كان الأمر مربكًا شديد الإرباك خاصة وهم يعانون من الحادث الذي أصاب أباهم فأثر على كثير من قدراته، الاحساس بانعدام الأمان هنا كان مركبًا ومخيفًا أيضًا.

أتذكر أنني أجلستهم بقربي، قريبًا جدًا، وحكيت لهم نظرية ساذجة مفادها أن السرطان مجرد خلايا صغيرة مجنونة وأن ماما لا يمكن أن تستسلم لهذه الخلايا المجنونة. ثم أخبرتهم أن الطبيب كتب لي دواءًا غريبًا على أهل

الطب "على سارة أن تعطي ماما ثلاثة أحضان كل يوم، لأن حضن سارة قد يُشفي ماما فعلا". لم أكن أكذب، أنا أصدق هذا، وأحضان سارة كانت دواءًا أفضل من الكيماوي والإشعاع وكل أنواع العلاجات المدمرة.

الفتيات هن من أخبرن حمزة بحقيقة مرض أمهم، وحمزة ظل يتعاطى مع قلقه وخوفه بشكل غير معلن. بينما استطاعت الفتيات لأنهن يتحدثن كثيرًا في التجربة أن يتجاوزن خوفهن، بعد أيام قالت لي سارة "أنتي غيرتي وجهة نظري عن السرطان، كنت فاكرة مرضى السرطان بيناموا كده في المستشفى وخلاص، بس أنتي أهو قوية وحياتك طبيعية".

محاولتي للتماسك أمام الأولاد جعلتني أقاوم ألمي وتعبي وأحاول أن تسير الحياة طبيعية قدر الإمكان، لهونا كثيرًا معًا، وتحدثنا، كنا أصدقاء، وربما من فضل هذه التجربة أنها قربت بيني وبين بناتي وجعلتنا أصدقاء حقًا. كانت نور تراقب سقوط خصلات شعري، تراقب محاولتي لتحسين شكلي قدر الإمكان، تساعدني على ارتداء ملابسي، في الأوقات التي لم تعد فيها حركتي خفيفة مثلما كانت، تعد لي أكواب الينسون والنعناع والكمادات حين أعاني من نوبات الحمى.

مشاركة التجربة وحصولهم على دور في المسرحية الدائرة في البيت جعلهم شركاء لا مجرد متلقين، جميعنا، كل هذه الأسرة حارب وحشًا يحاول أن يهزم ماما، هي تقاوم ونحن معها.

تلقيت مساعدة حقيقة من الأسرة الممتدة، فقد ساهمت جدة الأولاد في رعايتهم، وكذلك أخواتي، وبعض الأصدقاء كذلك قدموا مساعدات جليلة وكذلك الجيران. ينبغي أن أذكر أيضًا الدور الذي لعبه الأستاذ عمرو عبد الرازق المدرس الخصوصي الذي كان يعاون الأولاد لتحصيل ما فاتهم من الدروس عبر الإرباكات العديدة التي مروا بها، لكنه تجاوز ذلك ليصير صديقًا للأولاد، وبمحبة بالغة جعلهم يتفوقون في دروسهم.

ربما ساهمت التجربة في إنضاج الأولاد أسرع من سنوات عمرهم الصغيرة، صرنا نعرف أن الأسرة تواجه ظرفًا صعبًا وأن علينا أن نتعاون حتى نستطيع أن نواصل حياتنا بهدوء. فالتزم كل منهم بدور. حمزة صار يقدم بعض المساعدة في رعاية أبيه، الفتاتان تساعدان الأم، نور الكبرى تساعد أحيانا في رعاية أختها الأصغر، تحميمها، تصفيف شعرها، اختيار ملابسها. بعد قليل من الوقت اكتشفت أن أدوارهم تجاه بعضهم البعض تجاوزت هذه الخطوط البسيطة فسارة الصغيرة صارت تعاون نور في حفظ الدروس كما كانت تساعدها نور أيضًا. وحمزة مسؤول طباعة الورق وتشغيل الكمبيوتر، وشرح بعض الصعوبات للصغيرات أحيانًا.

صرنا نعرف أن المرء قد يمر من وقت لآخر بإبتلاء صعب، وأنه قد يدرك لاحقًا أن لهذا الإبتلاء جوانب إيجابية، ذلك الذي نسميه اللطف الخفي، لذا فالدرس هو ألا نجزع، صرنا نرى أنه بالإمكان أن نخوض معركة صعبة للغاية، لكن لحظة النصر في النهاية هي لحظة سعيدة جدًا لا تقدر بثمن. النجاح في المعارك الصغيرة لا نحظى به دائمًا حين نعيش

حياة رتيبة بلا تحديات. لكن ها هم قد شاهدوا أمهم تخوض تجربة المرض وتنجو وتستعيد حياتها شيئًا فشيء، وحتى بابا الذي كان مثالًا نموذجيًا ليأس الأطباء يُشفى ويتحسن ويستعيد حياته. ببطء نعم، لكننا نسير في طريق، أن ترى خطواتك على الطريق لهو أعظم الأمل.

في النهاية لا أقول أنني أربي أطفالا مثاليين، يتجاوزون مشاكل من هم في سنهم، هم رائعون لأنهم استطاعوا أن يكونوا مثل كثير من أقرانهم بالرغم من التجربة الصعبة التي مرت بها الأسرة، هم أطفال طبيعيون في حياة غير طبيعية، ولذلك فهم رائعون حقًا.

الأبطال الثلاثة: حمزة ونور وسارة

كانت صديقتي تشك في إصابتها بسرطان الثدي، في مرحلة الفحوصات قالت لي وهي تبكي: "لا أريد أن أموت وأترك ابنتي فهي مازالت بحاجة إليَّ"، وبكيت أنا الأخرى.

كنت طفلة صغيرة جدًا حينما ماتت جدتي، تشبثت وقتها بطرف ثوب أمي ومنعتها أن تذهب دفنة أمها. كان كل ما يسيطر على عقلي الصغير وقتها أن أمي إذا ذهبت للمقابر، فستذهب مع أمها وسيأخذها الموت مني.

لم تذهب أمي بالفعل، فقد أدركت حاجة طفلتها الصغيرة للطمأنينة، لم يقترب بعدها الموت من عالمي كثيرًا. ربما كان يخافني. وربما كان يتركني أنهل من الحياة ما يكفي لري مستقبل سيكون منهكًا بالوقوف بين حافة الموت والحياة.

بعد سنوات صار الموت في قاموسي يُعني حدثًا عاديًا، ربما عودتنا

الفضائيات على استقبال أخبار الموت. كنا نصحو على نشرات أخبار مشبعة بالقتلى وننام على حصاد الدم المراق خلال اليوم، وما بين هذا وذاك سقطت مـدن وهدمت بيوت، ودمرت أحياء، ربما يكون الموت في مهنتنا هو خبز يومنا، فلماذا نتعجب إن اقترب من أرواحنا.

اقتربت من الموت وابتعدت بفضل اللـه، لكن تبقى بصمة التجربة في الروح لا تغادر، تسألني سارة بوضوح: "يا ماما لو متي دلوقتي، إحنا هنعمل إيه؟"

يؤرقني سؤالها كثيرًا، وحين تناقشت مع صديقتي منال، أخبرتني مازحة: "هو أنتي هتشيلي همهم وأنتي حية وأنتي ميتة؟"، فضحكنا، منحتني مزحتها قدرًا من السلام والتسليم، فليقضي اللـه ما يريد إذن.

تحكي لي صديقتي لبنى عن الطفل الذي فقد ذويه، لكن اللـه كتب له حياة أفضل من دونهما. أفرد ذراعي على سطح بحيرة القدر وأنام مطمئنة، فاللـه هو صاحب المصائر وهو رحيم.

أفكر في نفسي هذه المرة، لو مت فسأكون أنا من يفتقدهم، تأسرني الابتسامات الصغيرة لنور، وأحب تعابير وجهها الجميل، أحب مشاغبات حمزة ورجولته الصغيرة، تذوبني سارة في حنانها وعقلانيتها المفرطة، والتي لا تليق بسنها. أريد أن أعيش مع هذه القلوب الصغيرة التي تزين عالمي، هم من يمنحونني الحياة حقًا، فكلما أبتسم أحدهم، انفتح داخل روحي باب للحياة يصارع الموت ويهزمه.

قبل أيام، بدأ حمزة ونور معاونتي في رعاية أبيهم، كما عاونت سارة من قبل في اللعب معه يوميًا لعبة تمارين الذاكرة، والتي يوصي بها أخصائي التخاطب. أشعر أن التجربة تكاد تكتمل، كنت أخاف على الصغار من هول ما عشناه في السنوات السابقة. كان حمزة في السابعة من عمره حين أصيب أبيه في حادث سير، وها هو في الحادية عشر، يدرك جيدًا أن من واجباته كصبي تقديم المساعدة لأبيه المريض.

كانت سارة ابنة الثلاث سنوات تجلب سجادة الصلاة وتجلس عليها كي تدعو اللـه أن يرد لها أبيها، وها هو يرده لها حيًا مع تجربة إنسانية فريدة، اعتقد أنها ساهمت كثيرًا في إنضاجها مبكرًا.

لا شك أنهم واجهوا شعورًا كبيرًا بعدم الأمان حينما علموا أن أمهم هي الأخرى تواجه خطر الموت.

في بداية رحلتي مع السرطان، كنت قد حددت مخاوفي بوضوح، إذا كان ثمة ما يخيف في الموت، فهو الغياب، وأنا أريد أن أربي أبنائي بنفسي. أريد أن أعلمهم ما يعتمل في عقلي من أفكار، وأتعلم من خبراتهم الصغيرة وأشبع عقلي ببراءتهم، أريد أن أمنحهم ما أعطتني إياه التجربة.

أسرح كثيرًا بخيالي، فأتخيل نور تمر بتجربتها العاطفية الأولى، أشحذ مشاعري لكثير من المساندة التي يتوجب عليَّ أن أقدمها لها. أقول لصديقاتي أن فشل العلاقة العاطفية الأولى قدر يبدو وكأنه من سنن الكون، استعد لهذه اللحظة كي تخرج نور من التجربة قوية وبريئة وجميلة كما دخلتها.

أتخيل حمزة وحماقاته التي لا شك سيرتبكها، أتصور عناده وأسرح في مشاجرات مقبلة ستجمعنا، كيف سأروض الفتى الذي أوشك أن يكون رجلًا.

وأفكر في سارة، أتخيل أنها ستكون الأكثر انضباطًا. ربما ستغير مسارها بعد سنوات وتقرر أن تكون مشاغبة كأمها. ربما ستتخلى عن التزامها المفرط وتدرك عبثية الحياة. ربما ستتعلم أن تعيش بمزيد من الخفة. أتخيل أنني الأم الوحيدة في العالم التي قد تنصح ابنتها بضرورة كسر القواعد أحيانا.

أريد أن أعيش كي أخوض كل هذه التجارب مع أولادي. كانت إرادة الحياة هذه هي زادي الذي منحني إياه أبنائي خلال رحلة العلاج. فكلما أردت أن أواصل حياتي معهم، كلما صمدت أكثر أمام صعوبات العلاج.

الآن، أشعر أن أبنائي ساعدوني كثيرًا كي أبقى على قيد الحياة.

كوابيس الحركة والسكون

كنت طفلة شديدة النحافة، أتحرك كأنني أطير من فرط خفتي. كنت استمتع جدا بالأيام الشتوية العاصفة، كانت الريح تدفعني وكنت لخفتي أشعر أنني ريشة تطير في الهواء.

في تلك الأيام سألت نفسي ماذا يحدث إذا فقدت قدرتي على الحركة، واتفقت بيني وبين نفسي على أن هذا أسوأ ما قد يحدث لي. ظللت هكذا حتى كبرت والتقيت أحمد نصر الدين والذي كان من ضمن تحليله لشخصيتي هو أنني من هؤلاء الذين ينمو وعيهم بالحركة. حدثني أحمد كثيرًا عن قيمة السكون، لكنني ظللت أتحرك وأنا أدعو الله ألا أفقد أبدًا قدرتي على الحركة.

كبرت طبعًا وثقلت حركتي، ولم أعد تلك الصغيرة التي كانت تتحرك وكأنها تطير، لكنني أمشي، أفرغ توتري بالمشي لساعات طويلة. أتحرك،

لم أعد أمشي بخفة ريشة، لكنني أزرع الأرض جيئةً وذهابًا.

في بداية رحلتي مع السرطان أخبرتْ الطبيبة زينب خيّر، أن صديقتها ربما تفقد القدرة على الحركة خلال شهرين. لم تخبرني زينب في وقتها، لكنني عندما هاتفتها بعدها بعام أشكو من آلام في العظم، قالت لي: "احمدي ربنا" وأخبرتني بما كانت قد أبلغتها إياه الطبيبة المرموقة في طب الأورام.

كنت أهاتفها وأنا أستعد لإرتداء حذاءًا بكعب عالي، كنت قد انتويت أن أدرب نفسي بعد أربعين عاما من الحياة، على إرتداء الكعب العالي. نظرت للحذاء وأنا مترددة، هل سأتمكن من تنفيذ مشروع ارتداء الكعب العالي في المستقبل؟

عاودتني آلام العظم، هي في النهاية آلام بسيطة ومحتملة. أتذكر الطبيب الفرنسي حين قال لي موضحًا: "ما أتحدث عنه هو آلام تمنعك القدرة على النوم". حتى الآن يبدو الوضع تحت السيطرة، لكنني أواجه الوسواس داخلي، يقول لي: لاشك أن تلك البؤرة المؤلمة، هي بؤرة سرطانية على العظام، لا شك أنها صغيرة جدًا، لكنها قد تكبر وقد تأكل العظم وهي في طريقها للتمدد.

أبالغ في احتساء الحليب وتناول حبوب الكالسيوم، وأنا أحاول أن أهزم وسواسي.

في الصباح أذهب للمستشفى كي أتلقى جلسة الزوميتا، الزوميتا تعيد

توزيع الكالسيوم في الجسم لتدعم به الأماكن المصابة والضعيفة.

في الانتظار يقف مريض يعاني من عرج خفيف، بشكل أدق من فقدان اتزان أثناء السير، أتأمله وأنا أقول لنفسي: هل هذا هو مستقبل حالتي؟ أظل في المستشفى ساعتين لحين انتهاء تحليل نسبة الكالسيوم في الدم. تروح عيني وتجيء تراقب مرضى يسيرون على كراسٍ متحركةٍ، وآخرين يستخدمون العكازات، وغيرهم ممن يتلقون مساعدة على الحركة من الغير.

أحمد الله كثيرًا، مر أكثر من عام، لكنني مازلت قادرة على الذهاب لتلقي جلسات العلاج بمفردي وعلى قدمي، خفيفة كما زلت كعصفور يحب الحياة.

حين أدخل لتلقي جلسة العلاج يجلس الرجل ذو العرج الخفيف في غرفة مجاورة ذراعه موصولة بالمحاليل، وهو في الغالب يتلقى نفس العلاج. يبتسم حين يراني. وأنا أتأمله كثيرًا. أعاني من مخاوف لها علاقة بالمستقبل، لكنني أواصل الحياة، أواصل مشاريع طموحة لا تتناسب مع الإصابة بسرطان العظم، ارتداء الكعب العالي، التمارين الرياضية، السباحة.

أتذكر أن مخاوفي التي راودتني وأنا طفلة قد تتحقق ذات يوم، وأُذكِّر نفسي بما تعلمته من أحمد نصر حول قيمة السكون، ربما يأتي يوم يصبح هو زمن السكون.

عصفـور

في حياتي القادمة سيخلقني اللـه عصفورًا، أشعر بهذا وأنا أشاهد فيلمًا وثائقيًا تعرضه ناشيونال جيوجرافيك عن الطيور. أتأمل أجنحتها وأراقب الطريقة التي تعمل بها لتحملها بعيدًا في الفضاء الرحب، أشاهد حين تثبت الجناحين في وضع أفقي لتنطلق بعيدًا أو حين ترفرف بهما لمزيد من التحليق.

كنت أشاهد وثائقي الطيور وأنا في قاعة الانتظار، انتظر دوري لمقابلة الطبيب. صارت حياتي كومضات من النور والظلام، أزمات صحية متعاقبة تلزمني الفراش لأيام طوال. أفقد قدرتي على القيام بأبسط الأشياء، استسلم للنوم لساعات طوال عله يهبني عافية مفقودة. ثم تأتي أيام العافية فأعود لممارسة الحياة بشغف أكبر، شغف أقرب للجنون، أنه شغف المحروم، لم يعد الفراش يعني النوم في سلام والراحة من عناء يوم ككل يوم، صار

الفراش يعني رائحة المرض والتعرق الشديد وآلام الجسد، والتقلب في الفراش بحثًا عن راحة لا تجيء.

اكتشفت أنني صرت أحب أكثر التمدد على أَسَرَّة المستشفيات، ما أن أضع رأسي على وسائدها البيضاء حتى استغرق في نوم عميق. نوم افتقده في الليالي العادية، تلك التي أوفرها دائما لأنشطة تستحق أن تُمارس على عجل قبل أن تداهمني وعكة صحية جديدة، أو ينشغل فيها عقلي بقضايا ملحة على أثر افتقاده للحياة.

حين وصلت المستشفى هذه المرة كنت أعاني من ارتفاع بالغ في ضغط الدم. علمت لاحقًا أن ارتفاع ضغط الدم هو أحد الآثار الجانبية للدواء الجديد الذي أضيف لقائمة الأدوية التي أتناولها.

أتذكر أمي وهي تعاني من نوبة الضغط العالي، رأسها ثقيل وملقى على الفراش ليل نهار، كنت صغيرة، ولم أكن أدرك الألم الذي تحتمله، رحمها اللـه فهل تسامحني اليوم على قساوتي وجهلي؟

في حياتي القادة سأكون عصفورًا، وسأكون أرق قلبًا من تلك المرأة التي كنتها، سأستفيد من خبرة الألم في معرفة آلام البشر، ربما سأصير ساحرة لديها القدرة على الشفاء، أو ربما سأكون قديسة تداوي آلام الغرباء.

يؤلمني قلبي، يقولون لي أنها تداعيات ارتفاع الضغط، يطلب الطبيب مزيدًا من الفحوصات لاختبار حالة الكوليسترول وإنزيمات الكبد والدهون.

أخاف من شكة الإبرة، أقرر مسبقًا أن أتوقف عن تناول الأغذية الغنية بالكوليسترول والدهون لعلي أهرب من إبرة الفحوصات.

تمضي الحياة، ومع مضيها أقتطع جزءًا من بهجاتها الصغيرة. أقنع نفسي مع الوقت بمتعة البقاء على الكنبة، أحاول أن استمتع وأنا أتخيل نفسي في حياتي القادمة عصفورًا يحلق بعيدًا جدًا عن كل هذا العالم.

عن شكة الإبرة التي تخيفني أكثر من الموت

اليوم بكيت. كانت اثنتين من الممرضات تبحثان في ذراعي عن وريد صالح لشكشكة الكانيولا، وحين اختارتا الوريد الأبرز في باطن الرسغ، كنت أعرف أنه الأكثر إيلاما، وطلبت منهما اختيار وريد آخر، واصلتا البحث وأنا ادعو الله مع كل شكشكة أن تنجح التجربة، ثم بكيت. بكيت لأني استهلك دعواتي في الأشياء الصغيرة. تذكرت أنني لم أعد أطلب من الله أن يمن علي بالشفاء (تسليمًا لمشيئته) بينما أدعو بلهفة أن أنجو من شكة الإبرة في باطن الرسغ. لماذا يا ربي تتركني لهذه الاختبارات الصغيرة؟

تلمس ذراعي المستسلمة بين يدي الممرضة بطنها التي تحمل جنينًا يوشك أن يأتي للعالم. ذلك العالم الذي نوشك أن نغادره. أفكر في المفارقة بين الحياة والموت. الميلاد والرحيل.

لا أتعامل مع احتمالات موتي كخبر مأساوي. أتصور أنني دخلت هذه الحياة بأكبر قدر من الحذر والهدوء، وسأرحل منه بلا ضجة. عمومًا لا يمثل لي الموت حدثًا مأساويًا. إنه مجرد رحيل، ربما العالم الآخر أفضل. نعم هو في الغالب أفضل كثيرًا.

لا أكتب لنفسي مرثية، فأنا لا استحق الرثاء، فقد منحتني الحياة كثيرًا من بهجتها وألقها حتى إنني أتصور أنني مثل يوسف بك وهبي "عشت ألف عام".

تسألني الممرضة: هل لدي مشاكل في القلب؟ أجيب بالنفي، وأتذكر أوهام الطفولة. كنت أتصور أن أول ما سيعطب فيَّ سيكون قلبي. القلب هو بيت المشاعر، وأنا أمارس كل الأشياء بمشاعر حقيقية وصادقة. لم أتعامل مع أي شيء في الحياة بفتور أو بنصف قلب. كنت أتصور أنني سأستهلك قلبي سريعًا، وأنه سيعطب أولًا قبل أن أذوب أنا شخصيًا في الهواء كقطعة من حلوى المشاعر. لكن ما حدث هو أن كل شيء فيَّ يعطب، بينما يكبر قلبي، يكبر كبالونة أحلام ويحملني بعيدًا عن مرارات الواقع في أحيان كثيرة.

أما الكبد فهو بيت الألم، عادة ما تنوح سيدات الصعيد حين الألم بـ"يا كبدي". اليوم أجري أشعة رنين مغناطيسي على الكبد، لعله خير ويكون سليمًا بإذن الله. أضحك لأن المغناطيس الضخم الذي تدخلني الممرضة فيه يجذب بطاقة التعريف المعلقة على صدرها. تبتسم بخجل

وتتركني لوحدي في صحبة الجهاز وتخرج.

يطلب مني فني الأشعة أن أحبس أنفاسي. أجرب التوقف عن التنفس عددًا من المرات. أتخيل أنها بروفة مناسبة على الموت. تزعجني الأصوات العالية للجهاز، ثم تنساب المادة الصبغية في أوردتي، وأشعر بخليط من البرودة والحرارة. أبكي مرة أخرى. أبكي هذه المرة لأني لا أريد كل هذا.

كنت صبية عفية حتى وقت قريب. تزعجني المستشفيات والأدوية والمحاليل والكانيولا، متى سيذهب كل هذا؟

أمارس التنفس، ثم كتم الأنفاس وبمتوالية أسرع. لابد أن فني الأشعة وجد فيَّ مريضة مطيعة لم تتحرك قيد أنملة. تمارس بروفة الموت في أريحية وهدوء، فقرر أن يستثمر هذا فيَّ لينصرف مبكرًا من العمل.

كنت أخر طابور المرضى الذي بدأ من السابعة صباحًا. تنتهي الأشعة، فانصرف أنا الأخرى في هدوء العابرين. أستقل سيارتي وأصارع زحام وسط النهار وأعود لأطبخ طعام الغداء لأولادي.. لا شيء يوازن الانخراط في انتظار الموت سوى الانخراط في الحياة.

الـفـرح

في الصباح أخبرني صديقي أن الفرح يزيد من مناعة الجسم وبالتالي نصحني به كعلاج للسرطان. كان مزاجي سيئًا للغاية بينما كنت أفكر طيلة النهار، إذا كان الفرح دواء فكيف سنأتي به؟ من أية صيدلية أو من أي عطار؟ ما هي الوصفة السرية للفرح؟ كنت ومازلت بحاجة حقيقية لفرح يملأ روحي فيحصنها من العطب. وبينما كانت مصر تفرح حسب الأخبار الرسمية وبرامج التوك شو، كنت أبحث لنفسي عن مسار صغير للفرح، كمجرى ماء يشق صخر قلبي المنهك من الحزن. جلست لأسأله من أنت يا أيها السيد الفرح كي أتعرف عليك وأجلبك لقلبي؟ كي أرمم مناعة روحي المتهالكة؟ وإليكم بعض ما حصلت عليه من إجابات:

أنه ليس سهلًا على الإطلاق. يحوم أحيانًا فوق رؤوسنا كطيور عصية على الإمساك بها، يرفرف القلب كي يلمسه لكنه يعجز، هو العصي لكنه

بسيط ورائق كجدول ماء صغير يلهو حوله الصغار.

لا أحد يدرك قيمته أكتر من المحزونين، فهم العطاشى حقًا لقطرات فرح قليلة تجلو ذلك الصدأ الذي يغطي القلب، الفرح مثل رحمة الله يبسطه لمن يشاء ويغلق بابه عمن يشاء.

الفرح كالذهب يلمع، ولكنه قد يكون زائفًا، كقطعة من الصفيح المطلي. كنت كلما تأملت الأفراح الشعبية ومظاهر الاحتفال الصاخبة، أشعر أن هؤلاء الناس يغطون على حزنهم المقيم بالضوضاء والصخب. الفرح الحقيقي لا يستلزم الضجيج للإعلان عنه، الفرح الحقيقي ينمو في صمت أو ربما تلازمه موسيقى رائقة تربط ما بين الأرض والسماء.

الفرح شرطه الحرية، فإذا شعرتُ أنك تستطيع أن ترقص كفراشة حول النور دون أن تخاف من الاحتراق فأعلم أنك فَرِح حقًا وأنك تستحق الفرح. الفرح يجتاح القلوب الشجاعة ولا يعرف القلوب الخائفة، والفرح لا يأتي أبدًا دونما حرية.

الفرح هو ابن المحبة، فإذا كنت تكره فأعلم أنك غير قادر على الفرح، وهو أيضًا ابن البساطة فإذا ارتديت قناع الزيف لتقابل به الناس كل صباح بشخصية تبدو غير أصل شخصيتك، ففي الأغلب لن تحصل على الفرح ولن تقدمه الفرح.

الفرح بريء يشبه الحليب الأبيض المحلوب لتوه، دافئ وممتلئ بالعطاء

لا يعرف عنه شيئًا أولئك الذين تلوثوا بالأطماع الدنيوية وصارعوا من أجل قطعة صغيرة من كعك التراب الذي يتصارع من أجله البشر.

الفرح كالموسيقى لا يشبهه شيء ولا تعرف من أين يمكن أن تستخلصه. لكنه حين يأتي يتسرب لروحك ويغلفها بذاك البريق المتوهج، وحين يأتي ستشعر أنك أقوى مخلوق على وجه هذه البسيطة.

الفرح هو نفحة من نفحات الحياة، ليس للظلمات فيه شيء ولا يستطيع أن يقدمه لك المستبدون ولا الكاذبون ولا الغارقون في الأوهام. لا تفسدوا براءة الفرح، دعوه مخفيًا وسط براعم زهرة لوتس عتيقة، طافية على وجه بحيرة الكون، ما زال قلبي يبحث عنه، وربما هو يبحث عن قلبي المثقل بالهموم، ربما نلتقي.

في طريق المعجزة

كان السؤال الذي لم أنتبه له في البداية هو كيف أتخلص من الحزن، بكاء وبكيت، كيماوي وأخذت، لكن هزيمة السرطان تتطلب ما هو أبعد من ذلك. كان علاء السعدي صديقًا لأختي، شاب سوري الجنسية يعيش في دبي، متصوف وله دراية بعلوم الروح، فجأة وجدته يحدثني، قال لي: "أن قلبك أزرق"

- نعم؟

كنت حادة جدًا في التعامل مع الغرباء واستغرقت وقتًا طويلًا جدًا حتى أفهم أنه كان يقصد أن قلبي أزرق من الحزن، ألح عليَّ أن أبدأ في ممارسة التأمل. لم أكن أفهم ماذا يعني التأمل ولا كيف سأقوم به، حاولت صديقتي أمنية طلعت تعليمي لكنني احتجت للبحث عن مجموعة منظمة تقوم بالتأمل، انضممت لمجموعة وجدتها أخيرا في القاهرة، بعد الجلسة

الأولى، شعرت بأني خفيفة للغاية حتى أنني أكاد أطير. كانت تجربة التأمل فارقة بالنسبة لي في تغيير مفاهيمي تجاه الحياة بشكل عام وليس المرض.

لماذا نتعامل مع الحياة بكل هذه الحدة؟ ولماذا نسعى وراء أقدارنا وكأننا في سباق؟ أقدارنا مقدرة سلفا بالمناسبة، أين ذهبت الطمأنينة والسلام من نفوسنا؟ منذ متى لم أعرف فضيلة الاسترخاء.

اقترنت لدي ممارسة التأمل بعبادة ذكر اللـه. أساس التأمل هو تنظيم التنفس، مع التركيز في التنفس استشعر وجود اللـه ونوره، وكأنني املأ روحي بنوره عبر الهواء الداخل إلى قلبي. أمارس التأمل بهذا الشكل وكأنه جلسة مع اللـه، لا تغني طبعا عن الصلوات المفروضة والنوافل، لكنها ساعدتني لاحقًا في إدراك المزيد من فلسفة الصلاة والتركيز فيها أكثر والتغلب على السهو أثناء الصلاة.

في ذات التوقيت كانت صديقة أخرى تنصحني بصيغ بعينها للذكر وتتابع معي كل يوم. كنت ممتنة جدًا لاهتمامها بالرغم أنه لم تكن تجمعها بي صداقة مباشرة. نصحتني صديقة ثالثة بقراءة القرآن بعد صلاة الفجر مباشرة. وصديقة رابعة بالإكثار من الصلاة على النبي. كنت استغرق تمامًا في تجربتي الروحية متزامنة مع سير المسار الطبي كما يقرره الطبيب وكأن ما لقيصر لقيصر وما للـه للـه.

بدأت أفكر كثيرًا في إمكانية حدوث معجزة، ولم لا؟ ذكر اللـه يقوي الروح والروح القوية لا تستبعد المعجزات.

لا تتطلب المعجزة أجواءًا أسطورية، ليس من الضرورة أن تبرق السماء وترعد حين يمد الله يده لينتشلك من الضياع. قد يمضي كل شيء في سياقه الطبيعي. لكنك ستدرك في لحظة ما أن كل ما جرى قد جرى لترتيب إلهي، وأن عناية الله بك تحدث ببساطة، لأنه ببساطة أيضًا ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾. لا يحتاج لاحتفالات صاخبة ولا مهرجانات كي يعلن عن وجوده، ابتسم فأنت في حياتك اليومية وفي مسارك الطبيعي لكن الله معك، هو دائما معك، عليك أن تصغى لعل الوصل يحدث.

هل حدثت المعجزة؟ لا أدري على وجه الدقة، ولا أعرف هل يمكن وصف ما جرى معي بالمعجزة أو أنه يندرج تحت وصف الرعاية الإلهية، لكنني أدرك تمامًا أن الابتلاء ثم اعتيادي على ذكر الله قربني جدًا من الله، وأن هذا القرب كان كل ما أريده وربما كان فوق ما أريد، لم يكن يخطر ببالي هذا النور الذي صرت استشعره، هو جميل جدًا لدرجة أنك تتحمل كل شيء في سبيله، تتحمل وتكون فوق ذلك شاكرًا.

صرت أتذكر تلك الفتاة الصغيرة السمراء التي كنتها، ناحلة وبريئة لا تفارقها الابتسامة، وأشعر أنني عدت إليها، اغتسلت مما فعلته بي سنوات طوال من الركض في هذا العالم، أحب جدًا تلك الفتاة وأعلم أن الله يحبها أيضًا، فلو لم يكن لما منحها كل هذه التجربة.

الفصل الثالث

في مديح التجربة

عن منح التجربة أحدثكم

مبتسمًا يدخل الطبيب ليحقنني بذرة من السكر المشع، يبدو مرحًا جدًا وهو يحكي لي ما سنفعله اليوم، متأهبًا أكثر ليحكي لي طريقة عمل الـ"pet scan". أقاطعه بردود مختصرة تفيد أنني أعرف. شريرة أقطع عليه مرحه، فقد كاد أن يحكي لي التكنيك الطبي الأكثر إثارة للخيال حسب معرفتي.

منذ قرأت عنها وأنا أحب هذا النوع من الأشعة، وأشعر بالإمتنان لمخترعه. ليس لأنه الطريقة الأحدث والأكثر دقة في الكشف عن خلايا السرطان النشيطة داخل الجسم، لكن لأنه يتماشى تمامًا مع الفانتازيا التي تعاملت بها مع قصة الخلايا السرطانية منذ اليوم الأول مع المرض.

هل تعلم أن الخلايا السرطانية تحب السكر، مثلها مثل أي طفل صغير مشاغب؟! تلعب فلسفة عمل البت سكان على هذا الوتر، فهي تجوع الخلايا

السرطانية "إن وجدت" عن طريق صيام مسبق للمريض، ثم يحقن الجسم بذرة من السكر المشع. الإشعاع هنا مهمته تسهيل عمل جهاز الأشعة في تتبع ذرة السكر، وهي تستقطب خلايا السرطان الصغيرة الجائعة إن كانت موجودة في الجسم أو إن كانت حية ونشيطة.

مثل توم وجيري صارت علاقتي بالسرطان، أطارده، لكن لا تخلو المطاردة من خفة دم. تدور بيننا حرب، لكنها لا تخلو من المحبة.

غيرتني تجربتي مع المرض، فما عدت قادرة على الكراهية، هذا ما حدث لي رغمًا عني. ولم اختره. اعترف بأنني أتصور نفسي في هذه الروح الجديدة وكأنني في قطاع وردي "pinky zone" معزول عن خشونة الحياة وحقيقتها الـمُرة. أريد أن أعود لأكره وأصارع وأحقد وأغير. أريد أن أعود للمرأة التي كنتها، فأجد روحي غير قادرة إلا على المحبة. كشجرة مزهرة هي المحبة، معطاءة وسخية، تفرد ظلالها على الحياة فتحمينا من جدب الكراهية. استسلم تمامًا، وأفكر في ملايين البشر الذين يصنعون الحروب والخراب والقتل والانتقام، لو اقتربت أرواحهم ذات لحظة من فيء هذه الشجرة لتغير العالم حقًا.

كانت منحة المرض هي هذه التحولات التي تجري في روحي، أدركت الحياة من جوانب أخرى. أتصور أن لله تدابير لا يدركها إلا هو. أقبل بها تمامًا، وأقبلها كما كان يقبل آباؤنا رغيف الخبز الساخن. أنه رزق لا يدرك قيمته إلا قليلين.

تقول لي صديقتي: "سمعت أنك صوفية".

ارتبك كثيرا من التوصيف. ارتبك أكثر من التصنيف. أشعر أن البشر الطيبين في لحظة ما، وقعوا في شرك تصنيف أنفسهم، كنوع من التمييز. من التعالي على الآخرين، فمرة نحن ثوريون، وأخرى نحن صوفيون. يميز آخرون أنفسهم بأنهم إخوان أو سلفيين، أو يسار. أعتقد أن هذه هي حيلة الشيطان لنفوس الطيبين. تمييزهم بهالات التصنيف الدنيوية.

أحاول أن أحكي لها أنني لا أستطيع أن أصنف نفسي بأني صوفية. أنا فقط أبحث – صادقة – عن الطريق إلى اللـه. آراني كذرة فردانية في محيط الكون، وسط مخلوقاته أُسبِح بمحبته في الفضاء الواسع، فردانية العبد هي طريق الحرية، بينما ذكر اللـه هو طريق المحبة.

اقتربت من حافة الإلحاد. في الملكوت الواسع كنت لأيام قليلة كجرم تائه في الفضاء. كنت صادقة في معرفة الحقيقة الخالصة حتى رأيت وجه اللـه فآمنت حقًا، استسلمت وسلمت. أليس هذا هو الإسلام حقًا؟

توقفت عن الذكر، حتى أدركت أن ذكره يُطلب لذاته لا لغرض ولا هدف. لا للتيسير ولا للشفاء، ولا للرزق ولا حتى للمغفرة. ثمة شيء أجمل من هذه الأشياء حقًا، لا يتحقق إلا لقلب ذاكر. تخيل أن نوره يحتل أنفاسك صاعدة وهابطة. أن اسمه يتجلى مع كل تمتماتك.. ثمة جنة على الأرض لا يدركها إلا قلب ذاكر.

حين اقرأ القرآن استغرق في كل هذا الجمال، فأسأل نفسي: هل هذا القرآن هو ذاته الذي يخرج من قراءته بعض البشر بأحكام متطرفة وعدائية تجاه الآخرين؟ القرآن يشبه خيطًا من نور تتضافر مع بقية الروح. تمنحها بعض ما تسأل، فإن سألت سلامًا وجدت، وإن طلبت سلطانًا وجدت، أما أنا فروحي لا تطلب إلا وصله.

أحب مرضي، فلولاه لما أدركت روحي كل هذه المعاني. أرقد على فراش الأشعة. تدور عيون جهاز الأشعة حول جسدي بحثًا عن خلايا سرطانية. لا أهتم كثيرًا هذه المرة، فماذا إن عطب الجسد، بينما تدور روحي كفراشة سعيدة في الملكوت.

الملائكة

ولأنني بخير، فسوف أحكي لكم اليوم عن الملائكة:

(1)

كان يلهث من العطش، يقف على إفريز شباكي يطلب الماء، يضع عينيه في عيني بثبات لا تفعله الطيور عادة. للوهلة الأولى لم أفهم لغته، حين وقع وكأن جناحه لا يحمله، نظرت له وهو يسقط، كان هو الآخر ينظر لي كطفل يستنجد بأمه.

اعتدت في الأيام التالية أن أضع له ماءًا باردًا وحبًا.. صار يأتي بانتظام بصحبة رفيقته، يشاركهم الأكل في بعض الأيام زوج من الحمام بطوق أخضر يزين الرقبة.

يصوصو العصفور الصحراوي الذي يزورني، وأنا لا أفهم لغته. تزداد حيرتي مع الوقت، لكنه يصير مؤنسي، اعتاد عليه ويعتاد عليَّ، أرتب طعامه كل ليلة قبل أن أنام كما أحضر إفطار صغاري الثلاثة.

(2)

كنت قلقة جدًا في الصباح، أقف في طابور الكاشير، كي أدفع رسوم مقابلة الطبيب. انتبهت للممرضة الهندية السمراء ذات الملامح الصغيرة للغاية، كانت تطالعني بتركيز وتبتسم. تحول قلقي من نتيجة الفحوصات التي سأعرفها بعد قليل إلى قلق من نظرات الغريبة، فكرت في أنها ربما تكون ملاك الموت يدعوني بنظرة مشجعة للولوج إلى العالم الآخر.

وأنا جالسة في صالة الانتظار، أخذت أراقب الممرضة الهندية السمراء، كانت صغيرة ورشيقة وخفيفة كأنها عصفور. كانت تسير في المستشفى بابتسامتها الجميلة وبخطى سريعة تشع بهجة. كانت جميلة جدًا، وكأنها فراشة ترفرف في المكان، رغم أنها تخاصم المقاييس التقليدية للجمال، حين أقارنها بغيرها من الممرضات. أدرك أن هذه المرأة التي منحتني ابتسامتها في بداية اليوم، هي روح طيبة، ربما تكون ملاك، لكنه ليس ملاك الموت بالتأكيد.

(3)

على كرسي الانتظار أفضي بهمهمات الذكر لمسبحة خشبية صغيرة، تفوح منها رائحة المسك. كنت أعتقد –سابقًا– أنني أرسل التحيات للسماء معطرة برائحة المسك، ماذا إن كنت أرسلها إلى قلب السبحة الخشبية، الخشب ابن الطبيعة وله روح ويتنفس!

أقرب السبحة من فمي وأودعها ما في نفسي من تحيات، ماذا إذا كانت السماء والأرض تتقاطعان في هذه اللحظة في صلاة طيبة تخرج من فمي!

يمر أمامي رجل وزوجته، لم أعلم أيهما المريض، في البداية ظننت أنها هي بحكم التعود، فأغلب المرضى في المستشفى من النساء. التفت لكونه يعاني عرجًا خفيفًا، فأظن أنه هو المريض، ينظر لي بتركيز، لا شك أن المسبحة التي كانت تتلقى أسرار المحبة هي سبب تركيزه. أحاول اخفاءها فلا رغبة لي في لفت الأنظار، يتنقل كثيرًا هو وزوجته في صالة الانتظار وبين الغرف، لاشك أنهم يفعلون شيئًا أكبر من مجرد انتظار الدور لمقابلة طبيب، ربما ينهون أوراق، أو يطلبون تقريرًا.

يحين دوري أخيرًا، فأدخل لمقابلة الطبيب، وحين أخرج من غرفة الطبيب، مطمئنة هذه المرة، أجد وجهًا في وجهي، ينظر لي ويبتسم، فابتسم.

(4)

يقول الطبيب إن كبدي سليم، ويقول لي إن بإمكاني أن أعيش عشر سنوات أخرى، وربما عشرين أو ثلاثين.. أضحك كثيرًا.. أتخلص من هم اليوم وما سيأتي من العمر، وسأعرف كيف سأنفقه.. أبدأ في معاودة الخطط النهمة للحياة.

سأتعلم كثيرًا من الأشياء التي فاتتني ولم أتعلمها في العقود الأربعة التي عشتها، وسأجعل قلبي يرقص مع الموسيقى في كل لحظة، فقلب لا يعانق الموسيقى هو قلب ميت، وأولًا وأخيرًا سأجعل حولي وفي روحي مكانًا فسيحًا للملائكة.. سأمنحهم من الوصل ما يجعلهم يتنفسون.. ربما أعطر كوني بأنفاسهم الزكية.

في حياتي القادمة

قلت لهن: "أريد أن أطفش من هذا البيت".

ردت الفتيات الصغيرات تباعًا:

- وأنا كمان

- وأنا كمان

ضحكت صديقتي حياة وقالت: "المصيبة كلكم تهربوا لنفس المكان".

تراودني منذ فترة طويلة رغبة عارمة في المغادرة.. لا أريد أن أغادر البيت فحسب، لكنني أريد أن أغادر هذه الحياة.

أحب الألعاب الإلكترونية، لكنني دائما ما ارتكب أخطاء كارثية في اللعب، وفي كل مرة حين أخطئ، أول ما يتبادر لذهني، هو إنهاء هذه الدورة من اللعب. اسميها "البولة"، ونبدأ من أول وجديد "على مية بيضا".

أشعر أن هذه "البولة" من الحياة هي الأخرى باظت، وتستحق أن نقلب أوراقها ونبدأ من أول وجديد "على مية بيضا" أيضًا.

أقر وأعترف أنني مُنحت في هذه الحياة منحًا كثيرًا، لكنني أدرك أيضًا أن المنحة الحقيقية لهذه الحياة بالنسبة لي هي الأشياء التي تعلمتها. أشياء كثيرة تعلمتها، ومدارك كثيرة أدركتها، أفكر كثيرًا في أنني لو كنت أعرفها في بدايات الحياة، لتغيرت حياتي كثيرًا.

أشياء صغيرة جدًا وأشياء كبيرة. أشياء تبدو تافهةً جدًا كارتداء الكعب العالي، وأشياء تبدو عظيمة كالصبر والتقاط الأنفاس والثقة بالنفس.

أريد أن اختبر معرفتي الجديدة في حياة جديدة، سأولد فيها بنقاء قطرة ماء، لكنني سأكون أيضًا بعمق المحيط.

في حياتي القادمة سأطلب من الله ألا يخلقني في منطقة تشغل عقلها بالصراعات العرقية والمذهبية، ولا الجهاد المقدس، الله يعلم أن روحي تريد فسحة من السلام، لذا فأول ما سأطلبه من الله هو ألا أولد هنا، لا مزيد من الشرق الأوسط.

لعلي أولد في مكان يشغل نفسه بالثقافة والمعرفة والفنون، لعله يمنحني بيتًا بحديقة، ويعفيني مشقة السعي من أجل "أكل العيش".

سأطلب من الله أن يخلقني في مدينة جميلة، فقد جفت روحي من هذا القبح المحيط. وسأطلب أن تكون المحبة هي ما يربط البشر الذين أعيش

معهم، لا مشاحنات ولا مشاجرات، لا حقد ولا غيرة ولا كراهية.

في حياتي الجديدة سأطلب من الله أن أكون أكثر رشاقة، ربما يمنحني روح عصفور أو يمامة. وستظل روحي تبتهل أن تكون قريبة من البحر، لقد تعلمت أخيرًا أن "عرشه كان على الماء"، وأنا أريد أن اقترب واقترب واقترب.

في حياتي الجديدة، سأحتفظ بكوني أنثى وسأتجاهل كل القيم التي تحط من شأن الإناث والتي تحيط بالهواء الذي نتنفسه منذ الميلاد. في حياتي القادمة أريد أيضا أن أكون أما لثلاثة أطفال رائعين أو ربما أكثر، لكن لعل الله يمنحني فرصة أن أربيهم بلا خوف من المستقبل وبلا كد كبير.. سأطهو لهم كل يوم، وستفوح رائحة التوابل الطيبة من مطبخي.

في الحياة القادمة سأطلب من الله أن يجعل الرجال أقل غرورًا، أو لعلهم يفعلون ذلك بمحض إرادتهم بحكم التجربة، فقد عشنا حياة مريرة بسبب غرور الرجال وقساوتهم.

في حياتي القادمة، سأحتفظ أيضًا بكوني سمراء، لعلي أشبه أكثر وأكثر الطبيعة الأم.

في حياتي القادمة لن أدع فرصة للحياة إلا وسأرتشفها وسأتخلى عن خوفي، كما أنني لن أعلق آمالًا كبيرة على الأمل، فقد خدعني ذات مرة ولن يخدعني مجددًا.

في حياتي القادمة سأتحول إلى شجرة عتيقة تعانق المطر، وتضرب بجذورها في الحياة، لكنها ستمنح الظل للجميع.

نعمة المعرفة

بكى صديقي حينما قرأ مقالًا أحكي فيه عن الألم. اعتذرت له فأخبرني باسمًا أنه يعرف أنني سعيدة رغم كل شيء، ثم قال "لقد حصلتي على معرفة يعيش بشر مائة عاما دون أن يحصلونها".

أعرف أنني أمضي في رحلتي، وقد صرت مهتمة أولًا وأخيرًا بهذه المعرفة. هي شيء أكبر بكثير من الذي يمكن أن يحتوي بين دفتي كتاب، أو أن تصوغه أفكار الفلاسفة، ثمة معرفة تتسلل إلى روحي لكنها عصية على الاستجابة للتعبير.

يتصل بي صديق آخر يسألني "هل الله عادل أم ظالم؟" أحكي له مطولًا عن الرحلة التي مُنحت لي، واللطف الذي جُبرت به، المعرفة هي حصيلة الرحلة، وكونه فتح لي باب الرحلة فإنه منتهى العطاء، ومنتهى الكرم. ننهي المكالمة، يشكرني صديقي وأنا أشعر بالامتنان فبعض الأسئلة هي التي تمنحنا الخيوط الأولى للإجابات.

يحذرني الأستاذ إبراهيم عبد المجيد من قراءة روايته أداجيو، أرى في عينيه محبة الأب واشفاقه أن أتابع أحداث روايته حول امرأة تعاني من السرطان. لست رقيقة لهذه الدرجة، أقول له وأبدأ في الصفحات الأولى للرواية التي تمضي في خفة نغم حزين لكنه أصيل.

الشتاء الماضي كانت صديقاتي يشفقن علي من مشاهدة فيلم "نظرية كل شيء" الذي يحكي عن قصة عالم الفيزياء ستيفن هوكينج، لأن معاناة زوجته تشبه كثيرًا رحلتي خلال أربع سنوات منذ تعرض زوجي لحادث طريق. على مقاعد دار العرض انسابت دموعي بالطبع، كانت تنساب ببساطة وبيسر كأنها أمرًا مفروغًا منه، كنت أعرف أن الدموع ليست هي ما سيبقى من التجربة، خرجت من صالة العرض وأنا مفتونة بجمال الفيزياء، الفيزياء هي معادل الصوفية في العلم، تمتلك قدرًا من السحر لا يمتلكه غيرها من العلوم.

أندم كثيرًا لأنني كنت أكره الفيزياء حين كنت أدرسها بالمدرسة، المناهج والوزارة والمدرسون جميعهم يشتركون في تمثيلية تقديم العلوم لنكتشف أخيرًا أننا نسبح في جهلنا، أحمل كتب ستيفن هوكينج على شاشة هاتفي الصغير وأحاول أن أعوض ما فاتني.

أنا سعيدة حقًا، تمنحني الحياة فرصة لتصحيح كل المسارات الخاطئة، والتخلص من كل المقولات المستهلكة. كنت أقول لهم وأنا صغيرة أنني أشعر أن حول عقلي حائطًا من الفولاذ لا تنفذ منه الفيزياء، ها هي الفيزياء أخيرًا

تنفذ إلى قلبي وتقترب من عقلي بلا فولاذ ولا رصاص ولا أوهام.

أدرك أن المعرفة هي حصاد رحلتنا طالت الرحلة أم قصرت، وأن الكون يستحق منا أن نصغى أكثر، أن نلتقط أنفاسنا بهدوء كي نتشرب بعضًا من الحقيقة التي لا تتسع لها روح إنسان.

خبز ورضا

أنهيت للتو خبز إحدى عشر رغيفًا بالتمام والكمال، وما يزال مطبخي ساخنًا وتفوح منه رائحة الخميرة. ابنتي الكبرى تساعدني، أتذكر ليالي مشابهة.

كنت أسهر لأراقب أمي وهي تخبز الفطائر. يقول لي صديقي أنني كنت خبازة في حياة سابقة فأشعر أن لو كان الأمر صحيحًا فلابد وأن هذه إمارة محبة، الخبز بركة.

"أَفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"، كلما هممت بالدعاء كلما تبادرت لذهني هذا الحديث، أتأمل في نعم الله الكثيرة، استشعر محبته حتى في الإبتلاءات الكثيرة. أنظر لوجهي في المرآة أحب سمرتي البريئة، أحب روحي وهذه من نعم الله عليَّ، نفخ في من روحه فأحببته وأحببتني وامتلأ عامي بالمحبة.

استمع لموسيقى قلبي، كلما نضبت الموسيقى من قلبي أشعر أن ثمة

خطرًا يتهدد كياني الإنساني. أتعجب ممن يحرمون الموسيقى، ويربطون هذا التحريم بالله، الله الذي منحنا كل هذا الجمال كيف تكون رسالته أن نغض أبصارنا، ونسد آذاننا عن الجمال المحيط في هذا الكون.

حينما يقترب الفجر أفتح نافذتي وأتأمل السماء لأرسل دعواتي لله، أدعوه بقدرته وبرحمته، فينطق لساني وهو يناجيه "يا بديع". كنت أتعجب من الجملة التي يقذفها الله في روحي وعلى لساني لكنني مع الوقت بدأت أفهم أن خالق هذا الجمال جميل ولأنه جميل لن يترك روحي في قبح الحاجة لرحمته.

تأمل جماله يحرر روحك من القبح المحيط.

في ليلة العيد تهاتف الفتاة السمراء أسرتها وتبكي، تبكي من الغربة في البلاد البعيدة ومن فقد الأهل. تستغرب صديقة من الحزن الذي يداهمنا فجأة في الأعياد، لو أن كل منا جعل من روحه ظلًا للغرباء ما شعرنا بالوحدة لا نحن ولا الغرباء. لكننا نخاف من الآخرين، نخاف على أشيائنا القليلة من العيون الحاسدة ونحمي خصوصياتنا داخل كانتونات تمنحنا آمانًا مزيفًا بينما هي مملؤة بالتعاسة. لو أننا منحنا بعضًا من أرواحنا للغرباء لازدهرت أرواحنا بالمحبة ولازدهر العالم بالفرح. فكرت كثيرًا في فضيلة الزهد، كانت تبدو لي متناقضة مع أمنياتنا الدائمة برغد العيش. أدعو بطيب العيش في الدنيا والآخرة. لكنني صرت أكثر فهما للسعادة التي تخلقها الأشياء الصغيرة والرضا بالقليل. تبدو لي أرغفتي الصغيرة، خبز

يدي في هذه الليلة من أعظم ما رزقه اللـه لي، أفرح أكثر برزق الأرض لا بالمال المدخر و تبدو رائحة الخبز المتصاعد من مطبخي هي عنوان السعادة.
أَفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا.

ما منحه الله لي

أتأمل في فكرة الدعاء، يعرف الله ما نريد يقينا، ويعرف ما يصلح حالنا أكثر مما نعرف، لكنه يطلب منا أن نطلب منه، بلساننا وبقلوبنا. لماذا يطلب؟

الله يريدنا أن نكون حاضرين في المعادلة، لا دُمى تتحرك حسب المشيئة الكبرى. أشعر أن إعلاء الله من شأن الدعاء، حتى إنه يقول إنه لا يعبأ بنا لولا دعاءنا هو قمة التكريم للإنسان. هو ما يثبت أن علاقتك بالله هي ديالوج وليست مونولوج، وأن إرادتك وقراءتك للواقع وعقلك وروحك حاضرين بأكثر مما تتصور، حاضرين لدرجة أن الدعاء يغير القدر، إنها طاقة الروح التي يمكن أن تغير العالم أكثر نحو الخير.

منذ بدأ رمضان حاولت جاهدة تكثيف العبادة، كنت ألهث لأنتهي من ختم القرآن الكريم في زمن قياسي وكأنني في مسابقة جري. لكنني كنت

كلما لهثت في القراءة لأنهي المصحف في أقل وقت ممكن، أصاب بوعكة صحية تلزمني الفراش لأيام، أفيق منها لأعود للهاث خلف الزمن فأصاب بوعكة جديدة، حتى وصلت الرسالة، لا تلهث وراء الله، والعبادات ليست مسابقة ركض.

منذ وعيت وأنا من المؤمنين بقيمة السعي، حين تبذل جهدًا بإرادة نافذة للوصول إلى الله وتقديم الطاعات حتما ستصل. حسب قاعدة ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾.

المجاهدة هنا لا تنتمي إلى جهاد داعش ولا السلفية الجهادية، إنه جهاد الروح، وهو الأكثر طهرًا من جهاد الدم.

في هذا الشهر، أدركت أن قليلًا من البطء يُصلِح التجربة، ربما تكون الهرولة إلى الله الأنسب في زمن وفي تجربة وفي طريقة، لكن في سياق آخر قد يكون الأنسب هو السكون بين يدي الله. التسليم، ثم إن البطء يعني التلذذ بالعبادة، استطعام الحروف، أن تترك الآية ترتاح في قلبك.

يريدنا الله أن نعلم أن الأشياء الأفضل هي الأشياء خارج النمط، وأنه لا يوجد تِراك للجري كالموجود في النوادي الرياضية، وأن العبادة ليست سباق سرعة.

أصلي جماعة. للجماعة قيمة كبرى في الإسلام. تنزعج السيدة التي تصلي أمامي لأن ثمة فرجة في صفنا تفصل بيننا وبين ثلاث مصليات، اخترن

مكانًا آخر في الصف دون أن يحافظن على لحمة الجماعة!

يقولون إن هذه الفرجة هي التي ينفذ منها الشيطان! أفكر، من أي فرجة يا ترى نفذ الشيطان إلى صفوفنا وعلمنا الكراهية والتعصب وجعل كل مسلم يتشكك في إيمان أخيه ويعلن في وجهه الحرب المقدسة؟

أعلم قيمة الجماعة في الإسلام، فصورة التلاحم في صورة المصلين صفًا واحدًا مستو تعني الكثير من قوة الجماعة ووحدتها وتلاحمها، لكن في واقع الأمر نحن لسنا كذلك.

من زمن طويل، حين كنت أسأل عن مذهبي أو فريقي الديني كنت أقول أنني لست من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

بعد سنوات اتسعت دائرة إيماني، فصارت الإنسانية ككل، فالله خلق البشر جميعًا ويريد الخير لهم جميعًا حتى لو لم يكونوا ضمن الدائرة الضيقة للمسلمين أو أصحاب الديانات الإبراهيمية أو حتى المؤمنين، أفكر متى سنسد الفرج مع الإنسانية بمفهومها الأشمل!

في رمضان هذا، أسير إلى الله بخطى أكثر هدوءًا، فقد تعلمت أن كل ما يكتبه الله خير، بشرط أن ننصت بإخلاص للرسالة التي يتركها خلف الإبتلاءات والعطاءات. هذا التسليم هو العطاء الأكبر الذي منحه الله لي.

وصفتي السحرية

سأحكي لكم عن وصفتي السحرية، "كنت مكتئبة للغاية" قررت أن أمارس رياضة المشي لمدة ساعة يوميًا لعلي أفقد الوزن الزائد "الجو حار للغاية والرطوبة عالية"، لكنني أمسك بمسبحتي وأواصل الذكر.

كلما ذكرت الله اهتزت الأشجار على جانبي الطريق طربًا وأهدتني من عطرها. "أتساءل ما هو العطر الذي يفوح من الشجرة العملاقة" لا أعرف ما هي الشجرة ولا اسمها لكن يقول لي قلبي أنه ربما يكون عطر التمر حنة أو مسك الليل "أنه عطر دافئ يمس القلب".

أواصل السير وكلما منحتني الشجرة من عطرها كلما قفزت روحي من قلبي جزلة لتلامس فروعها العالية.

أعود طفلة صغيرة، وأنا المرأة التي أكلها المرض والهم. أسأل الله أن يملأ قلبي بالجمال فيستجيب، فإذا بي وأنا أسير في يوم حار مشمس فوق

رأسي سماء رمادية كئيبة لكنني ألمح سحابة بيضاء جميلة من بعيد فانتشي ببهجة غير متوقعة.

أواصل مكافحة الهرم الذي ينال من روحي. أقف كل يوم أمام المرآة أبحث عن وجه المرأة الشابة التي كنتها. يتقدم الزمن فيهزمني حينًا وأمارس بهجتي الصغيرة فأهزمه حينًا. تمتد الحياة بيننا كخيط حبل نلعب به لعبة شد الحبل القديمة. أعلم أنني سأخسر لو نال مني الملل. أعلم أن حنيني الذي يشدني لحياتي القديمة ويملأ روحي بالأسى هو العثرة التي أضعها أمام قدمي على امتداد طريق جميل تحفه زهور المحبة من الله.

يقولون أن الحزن من الشيطان أنه شيطاني إذن الذي يقبض على قلبي بيدين خشنتين ويمنعني من استنشاق الفرح. في رحلة المشي اليومي أسير في شارع لا تهتز أشجاره وكأنها بلاستيكية لا تريد أن تتواصل مع روحي. تنظر لي قطة من قطط الشوارع نظرة حادة. أسير في رحلتي لأعرف أيضًا أن تلك المحبة المزهرة هي نصف العالم ربما بينما ينمو الجدب والكراهية على الوجه الآخر من العملة. امتلأ باحساس الشكر والامتنان وأواصل طريقي.

السيناريو المعاكس

مرت عليَّ أيامًا كثيرة كنت أفكر فيها، ماذا لو استيقظت لأدرك أخيرًا أن كل ما يحدث لي هو محض كابوس، وأنني ما زلت أعيش ذات حياتي الهادئة، وأن أحمد مستغرقًا في نومه بجواري، سيستيقظ مبكرًا للحاق بمواعيد عمله. سأصحو أبكر منه لتجهيز الأولاد للذهاب للمدرسة.

الآن حين أتأمل في السيناريو المعاكس، ماذا لو لم يعد أحمد للقاهرة، لم يتقدم بإستقالته بالإيميل وهو منفعل بأجواء ميدان التحرير. أو لو عاد بعدها بأيام لدبي كما فعل كثيرون، واصلنا حياتنا الهادئة في دبي، أب وأم يعملان بمهنة الإعلام في قنوات وشركات مرموقة. لدينا منزل صغير نسبيًا لكنه جميل، تحفه حديقة صغيرة ولنا جيران طيبون، ومعنا ثلاث أطفال تبدو عليهم آثار النعمة.

حياة طيبة بالرغم من ضغوط العمل اليومية. التسوق هو فاكهة الحياة.

الاستقرار هو سيد الموقف. لسنا شديدي الثراء ولا فقراء، لكننا مستقرون. الحياة التي تعطينا فرصة للنظر لأنفسنا في المرآة وأدراك ما نريده حقًا، فتعيدنا لهذا السباق من أجل تحقيق المزيد.

أفكر في السيناريو المعاكس لو لم تأخذ الأقدار بنا في طريق التجربة، كنا لنواصل حياتنا البريئة. نعيش الحياة من على سطحها. سنشيخ ونربي أولادنا ويكبرون ونحن لا ندرك حقًا ذلك القلب الحي في باطن الحياة، كنا سنحيا ونموت دون أن نعرف اللـه حقًا.

لو خُيرت الآن لاخترت التجربة، مع صعوبتها وآلامها. لو خُيرت الآن لاخترت أن يأخذ اللـه بيدي حيث التقيه فوق أمواج بحر هادر، أجده يحنو عليَّ وينقذني آلاف المرات من جنون الأمواج الهادرة. هل هناك محبة أكثر من هذه، ما الذي أريده حقًا بعد كل هذا؟ أنني الآن أشعر تمامًا أنني أنام وادعة في عيون من قال ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾. سبحانه.

حين يعود أحمد معافًا تمامًا من آثار التجربة، سيشاركني حصادها. سنتكلم كثيرًا عن اللـه، وعن المحبة وعن الإبتلاءات. سأحكي له كثيرًا عن علامات رأيتها ويقين أدركته. سأنشغل عنه قليلًا باللـه، سيحب هو أن أخلق أخيرًا مسافة تفصل بيننا، وستكون حياتنا أجمل.

ليتني كنت درويشة حقًا

أحيانًا أفكر في أنني أبني أسطورتي بدأب، وأنا أبث على مواقع التواصل الاجتماعي تلك الصور التي تحمل جزءًا من روحي على جمهور واسع. أبدو كنبي يحمل بشارة الأمل، أخاف من كل هذا الضوء، ماذا لو تعثرت قدمي وأنا أؤدي رقصة الأمل؟

ليت أمي علمتني أن أخاف من الغرباء. كانت طيبة حد السذاجة تبتسم في وجه الجميع. تطوي ألمها الصغير وتحوله لفراشات من المحبة. أحبت كل من حولها، أحبت أبي وأحبت أخواتها، وأقاربها وجيرانها وأبناء الجيران، وبائعي الخضر على ناصية الشارع. ليت أمي علمتني قليلًا من مهارات إغلاق الباب لكنها لم تفعل، فورثت عنها تلك المحبة المفرطة الاتساع.

لست درويشة وليتني كنت حقًا، فكيف أكون درويشة بروحي المثقلة بالتعلـق بالدنيا؟ ليتني منحت حقًا حرية أرواحهـم، تطفو هكذا خفيفة

لا يثقلها أمل ولا متاع ولا سعي. مازلت معلقة بالأمل والمتاع والسعي، سأكون درويشة حقًا حين يتوقف قلبي عن البحث عن البهجة خارج حجراته، حين يكتفي بنور الطريق، ساعتها ربما أنجح أن أكون درويشة.

تطوف حول عيني فراشات ملونة، لا أدرك هل هي تدلني على الطريق أم أنها تشغلني عنه. لا أدري هل أنا أسير حقًا على طريق المحبة أم لعله الزهو مرة أخرى يملأ قلبي بالهواء. هل ألوك الهواء يا ربي؟ هل انتفخ باللاشيء؟ أنها شعرة تُفرق بين طريق المحبة العامر بروح الله وطريق الهواء الذي تضيع فيه أرواحنا، تتبخر، تأول إلى اللاشيء، وأنا لا أخاف إلا من هذا اللاشيء.

ها أنا ذا أعود لتعاليم أبي القديمة. علمني أبي ملاحقة الزمن. منذ نعومة أظافري كنت أجلس لإنجاز دروسي وعيني معلقة على ساعة حائط في أعلى حائط حائل اللون، فقير إلا من دقات الزمن. أعلق عيوني على دقات الساعة لأحسب الوقت الذي سأمنحه للكتب والدروس. بين ساعة وأخرى أعطي نفسي خمسة دقائق على سبيل الاستراحة، بينما كان أبي يجلس بجواري صابرًا لثماني ساعات أو أكثر كي يعلمني فضيلة الصبر. مر زمن طويل ساعدتني فيه وصفة أبي على إنجاز فروض الحياة، صرت ألتهم الوقت لكن الله سيسألني عن عمري فيما أفنيه. حين قابلت أحمد نصر تعلمت الاسترخاء، توقفت عن حساب الزمن، بمحبته صار الزمن جميلًا جدًا، جميلًا حتى بدا وكأنه عصي على العد.

لا أعلم لماذا أعود اليوم لفروض أبي، أعاود حساب الزمن بقسوة، أراقب المنجزات. لا أعلم هل هذه إشارة لقرب الرحيل أم أن مواجهة الموت هي التي دفعتني لحساب الزمن بقسوة قبل أن ينفذ. إلا أن المحصلة النهائية هي أن الدراويش لا يحسبون الزمن ولا يعدون الدقائق.

للدراويش زمنهم الخاص لا يقلقهم مسارنا اليومي، ولا تلك البؤر الزمنية التي تبتلعنا. الدراويش لا يصارعون الزمن بل يعانقونه بمحبة. ليتني كنت درويشة حقًا فلا تؤلمني تلك السنوات التي فلتت كحبات عقد شاردة، تدور كبندول ساعة حول إبتلاءات لا تنتهي. أتأمل الزمن الذي مضى وتركني على أعتاب الكهولة، بشعر رمادي أتفنن في إخفاء شيبه. لو كنت درويشة حقًا لما تفننت ولا أخفيت ولا اهتممت. لو كنت درويشة حقًا لحسبت تلك السنوات المتطايرة من عمري كحبات مطر ببهجة طفلة صغيرة.